كيفيات شغل الذوات الاجتماعية لفضائها المديني الخاص المدينة التاريخية "الحفصية": نموذجا

*شهاب اليحياوي**

ملخص

هذا المقال مستخلص من دراسة سوسيومورفولوجية قمنا بها حول: توزيع الفضاء المديني والتغير الاجتماعي: مدينة الحفصية نموذجا. اتجه البحث إلى مقاربة الفضاء المديني من زاوية الاستعمال الذي تقيمه الذوات الاجتماعية التي تتحرك وتحي وتتفاعل ضمن وعبر الفضاء المديني وتتواصل مع الآخرين ومع ذواتها عبر الفضاء كلغة تخاطب رمزي بين الهويات الثقافية للمكان وكقناة تواصل اجتماعي يتّخذ منحى رمزيا. وهو بذلك يعمق البحث في المعطى الثقافي مقاربة الفضاء المديني اليوم وما تفرزه ديناميكية التفاعل الرمزي والسوسيو – ثقافي من توجيه لمورفولوجية ومعمارية فضاء المدينة العربية الاسلامية اليوم من ظواهر لعل اهمها ذلك التداخل بين الريفي والمديني وبين التقليدي والحديث والازدواجية واضحة المعالم على الصعيدين الجمالي والفني والمعماري.

وقد اعتمدنا منطقة الحفصية من البلاد التونسية كمثال لكونها مدينة ذات طابع تاريخي ويكشف البحث ضمنها عديد الظواهر الحضرية المرضية التي افقدتها نقاوة الهوية، هوية الانتماء الحضاري والتاريخي

الكلمات الدالة: التغير المخطط التغير القصدي التغير الموجه التغير الشكلي التغير العفوي التغير اللا شكلي الإستقرار الثب.

المقدمــة

نستدعي، ضمن هذا المبحث: الفضاء الخاص الذي هو المنزل أو الدار. ونطرح العلاقة بين الفاعل وفضائه الخاص على صعيدي: التمثّل والممارسة داخل فضاء مديني تقليدي يسمى الحفصية او الحارة[1]. حيث أن هذا التمشي التحليلي يسمح بتفكيك أبعاد ومستويات كل بعد من أبعاد إشكالية البحث وصياغة فرضيات عمل تتّصل بكلّ مستوى يتمّ مقاربته. تتّصل الفرضية الأولى الكبرى بتبادلية التأثير بين الفضائي والاجتماعي وتشكّل الدار مجال تمظهر تبادلية التأثير. ونفرّع الفرضية الأخيرة إلى جملة من الفرضيات: الفضاء الخاص هو قناة تواصل ثقافية واجتماعية أي تواصل مع الذات المستعملة للفضاء المشغول مع ذاكرتها وتصوّرها وتمثّلها للفضاء الخاص من ناحية ومع المجتمع أي الفضاء الاجتماعي، حيث تمثّل واجهة الدار مجالا لرسم صورة عن الفاعل المعطاة للآخر والتي لا تنسجم بالضرورة مع صورته لذاته كما تفهم وتؤوّل من الاستعمال أو التوظيف للداخل. ننفذ، من هذه الفرضية، إلى فرضية أخرى وهي أنّ تعاطي الفاعل للداخل الخاص من فضائه يخضع للتمثّل وللذاكرة في حين يتجسّد الظاهر منه (واجهة الدار) البعد القصدي والعقلاني في فعله أي إستراتيجية اندماجه في فضائه العام. لا تتّصل هذه الاوالية بفئة دون أخرى بل يمكن تعميقها افتراضيا. كما ننطلق أيضا من فرضية متّصلة بالسابقة مفادها أنّ واجهة الدار يتّخذ عبرها سلوك تعديل الفضاء معماريا وجماليا، دلالات اندماجية أي اجتماعية في حين يحيل في بعده الداخلي رمزيا إلى الثقافي أي التمثّلات والتصوّرات

نقارب، علاقة الفاعل لفضائه الخاص عبر مضمون فعل تدخّله في فضائه الخاص بالنظر إلى الأبعاد المعمارية والجمالية وعلى صعيدي: واجهة الدار التي منها شرفتها والداخل إلى جانب مورفولوجية هذا الداخل.

نستدعي، في تعقّل هذا الفعل الرمزي، متغيّرات الأصول الفضائية والمستوى المادي وأقدمية الوجود بمنطقة " الحفصية " والجنس، ثمّ نقارب تمثّلاتها لفضائها الخاص الذي هو المسكن أو المنزل أو الدار كخطوة ثانية نحو مقاربة تصوّر وتمثّل كل جماعة اجتماعية والدلالات الرمزية والاجتماعية لفعلها في فضائها بالنظر للأصعدة المذكورة.ولا نستند، هنا، فحسب إلى نتائج التحليل الحاسوبي للبيانات المحصّلة عبر تقنية الاستبيان

---

* باحث في علم الاجتماع، وزارة التربية، تونس، تونس. تاريخ استلام البحث 2013/9/23، وتاريخ قبوله 2014/8/10.

© 2016 عمادة البحث العلمي/ الجامعة الأردنية. جميع الحقوق محفوظة.

بل ندمج ما دوّناه وفريق العمل من ملاحظات ميدانية مفتوحة وأخرى مقنّنة، إثراء وتعميقا ولكن أيضا كمادّة لفهم وتأويل مقاصد المستجوبين من فعلهم في فضائهم الذي هو فعل في صورتهم لدى الآخر وليست بالضرورة فعلا في ذاتها أو تمظهر ماديّ لتغيّر مفاهيمها وتصوّراتها. فما تفعله الذوات الاجتماعية يستجيب لعناصر الوعي/ اللاوعي/ المادي/ والرمزي في الفعل الاجتماعي.

يستند التحليل، في هذا المجال المبحثي، المقاربة التزامنية synchronique أي تناول المدينة كما تنعكس في ذاكرة وتصوّر الجماعات الإجتماعية التي تحيى ضمنها وتحيى معها المدينة كما يقول لادروت. ويستدعي، ضمنه،كل من العلاقة بين الفاعل وفضائه الخاص أي الإستعمال الذي تقيمه الجماعات الإجتماعية لفضائها الخاص وأبعاده الخارجية (واجهة الدار) والداخلية (داخل الدار: الفارغ والمبني) بالنظر إلى مستويات: المعماري والجمالي والرمزي لهذا الفعل في الفضاء.

وقد قمنا ببحث إستطلاعيّ شمل العيّنة الجغرافيّة العشوائية التي إنتقيناها اعتمادا على تقسيم خارطة الحفصية إلى أربعة قطاعات جغرافية استنادا إلى تقاطع.

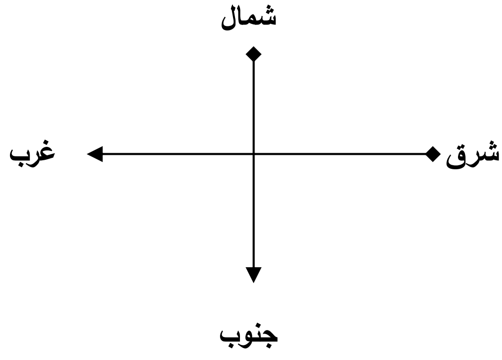

ثمّ قسّمنا كلّ قطاع جغرافي إلى ثلاثة مجموعات جغرافية تضمّ كلّ منها عدد من الأنهج والأزقّة المتفرّعة بشكل مترابط ثمّ قمنا بترقيمها، ليتمّ إنتقاء المجموعات ذات الأرقام الفرديّة بحيث نتحصّل على 6 مجموعات من الأربعة قطاعات وإن لم يكن ذلك بشكل متعادل. مكّننا هذا البحث الإستطلاعيّ الذي شمل ما يقارب 200 مستجوب من انتقاء عيّنة البحث بالنظر إلى متغيّرات مكان الإقامة (حي قديم / حي جديد). وقد حرصنا أن يكون عدد الوحدات من كلّ متغيّر متساويا بحيث أصبح عدد العيّنة 208 (2). اما اختيار وحدات العيّنة فكان عشوائيّا بعد تصنيف المستجوبين في البحث الاستطلاعي حسب متغيّرات البحث، ثمّ تمّ ترقيم وحدات كلّ صنف قبل القيام بالسحب العشوائي لوحدات كلّ صنف مقابل لمتغيّر من متغيّرات البحث.

1- جدلية الداخلي والخارجي: تنافذ التقليدي والحديث

إذا أخذنا مثلا شرفة المنزل ذي الطابق العلوي أو شقّة بعمارة، ينتهي بصر المارّة {الآخر/ الشريك في الفضاء} بأنهج وشوارع الأحياء القديمة أو الجديدة من منطقة " الحفصية " بحاجز بصري من قماش أو حصير أو بلاستيك أو الخشب المشبّك في أوجهها الثلاثة. وقد خلق ذلك مظهرا يتّصف بكونه خليطا لا متجانسا من الأشياء والمواد والألوان. إنّنا أمام فعل في مظهر أو هيئة الفضاء الخارجي يتجاوز بعده المادي أو أسبابه المادية الظاهرة. ويلاحظ هذا السلوك الفضائي ضمن أنماط مختلفة من السكن: أي الدور التقليدية أو الحديثة وداخل الأحياء التاريخية أي التقليدية أو الجديدة منها. يتزايد ويتكاثف هذا السلوك أو هذه النزعة كلّما تدرّجنا نزولا في سلّم التراتب الاجتماعي: من الأكثر إلى الأضعف حظّا ماديّا، في مقابل تراجع تواتر هذا السلوك كلّما انتقلنا من الفضاء التقليدي إلى الفضاء الخليط {تجاور وتداخل التقليدي والحديث} إلى الفضاء الحديث. وتتمثّل نزعة تحويل هذا الفضاء {الشرفة} المتخارج عن الداخل والمكشوف بدرجات مختلفة على الخارج إلى فضاء داخلي، في وظيفيته لا ماديته، أو هو ملحق بالداخل عبر صياغة حاجز إدراكي أو فاصل ماديّ يعزل شاغله ومستعمله عن مدى إدراك الآخر، يحوّله من ظاهر إلى مخفيّ ومن معلوم إلى مجهول. يؤهّل هذا الفعل {فعل الإستعمال} الشرفة ماديّا لإحتواء مضمون وظيفي مسقط عليها، يماثلها وظيفيّا مع داخل تقليدي موجود أو غائب في نمط السكن العمودي أو هو ملحق به في الفضاءات التقليدية ذات الوسط الفارغ {حوش أو وسطيّة}.

تمارس، في هذا الفضاء الضيّق، المرأة وهي جالسة أو منحنية الجسد أعمالا تكميلية: غسل الثياب ونشرها أو الجلوس طلبا للراحة أو لتبادل الحديث مع البنت أو الجارة في قطيعة مع مدى إدراك الآخر الأليف أو الغريب. يمارس هذا الفعل ذو الأساس الثقافي المتّصل بالقيم والمثل الأخلاقية المصنّفة لحركة جسد المرأة إلى مباح ومنبوذ، مسموح ومرفوض بالنظر إلى المكان أي الفضاء، فعلا ماديا أو جماليّا لكنّه رمزيّا على الفضاء الحديث بالذات. فهو من ناحية يؤنّث غير المؤنّث في الأصل، يعيّن غير المعيّن، يخصّص غير المخصّص أو هو يعيد ترتيب الداخل والخارج من الفضاء لا ماديّا بل رمزيّا عبر فعل الاستعمال وتجسّداته الماديّة والجمالية على الفضاء الخاص منه على المظهر الجمالي للفضاء المديني غير القابل للمراقبة [(2)](Zanned,1995,A).

فالشرفة تظلّ في مكانها المتخارج ماديا ولا تتبدّل لكنّ الذي يتغيّر ويغيّرها من خارج إلى داخل هو الممارسة أي الإستعمال

الذي يتغاير بين الجنسين ومنه يتّخذ الفضاء / نفس الفضاء مظهرين متغايرين. وقد وقفنا، عند تعمّدنا زيارة الأنهج التي لاحظنا فيها هذه الظاهرة في أوقات مختلفة من اليوم لفترات متعدّدة، على ظاهرة هامّة جدّا: إنّنا أمام مظهر متحرّك لا ثابت للفضاء. فالفضاء وان كان ثابتا ماديّا لكنّه يتغيّر أو هو يتبدّل. فهيئته أو مظهره يتغاير بالنظر إلى متغيّر الزمن في صلة وثيقة بالاستعمال وجنسيته (إناث / ذكور): ولا يستجيب هذا التغاير لعوامل المناخ بقدر ما يستند إلى فعل الإستعمال والمستعمل بالنظر إلى الزمن (صباح / مساء / ليل).

تتخّذ الشرفة مظهرين مختلفين في زمنين متباعدين من اليوم. فهي تنتقل من الانفتاح {إزالة الحاجز المادي} إلى الانغلاق {إعادته} ومن الظهور إلى التخفّي، من المعلوم إلى المجهول ومن الامتداد الأفقي إلى العمودي. فحينما تنشغل المرأة بالداخل في أوّل النّهار تكون الشرفة منزوع حاجزها ومفتوحة نوافذها وحين تتّجه إلى أعمال تكميلية أو طلب الراحة في مكان مهوّى ومشمس {الانتقال من الرطب إلى الجاف من الفضاء}. يكتسي هذا المكان مظهرا مغايرا وينتقل من الظاهر إلى المخفيّ ومن الانفتاح إلى الانغلاق. فكأنّ المكان يتعرّف على صاحبه ويتأقلم من أجله ولأجله حتى يكون مهيئ لأن يستمرّ تواجد مستخدمه ضمنه.

يصبغ هذا السلوك الذي يطوّع المكان وحتى الفراغ إلى قيمه ومعاييره ومثله أي ثقافة المستعمل، المظهر الجمالي لواجهات الأبنية العمودية وذات الطوابق العلوية وبالتالي المظهر الجمالي للفضاء المديني اليومي. فلو أخذنا الأحياء الجديدة {ما بعد 1973 م} التي أريد لها أن تكون نموذجا موحّدا للسكن والمعمار والمورفولوجيّة ومظهرا جماليّا متجانسا على صعيدي التخطيط والإنجاز، نجد أنّه يتّخذ بفعل الإستعمال مظهرا مغايرا يتباين.

بالنظر إلى متغيرات الموقع الفضائي ونمط السكن والمستوى المادي بشاغليها. فالفئة الإجتماعية المحظوظة ماديا تنزع إلى مظهرة تميّزها ورتبتها الإجتماعية عبر واجهة المسكن . التي منها الشرفة . حينما يتّصل وجودها بالفضاء التقليدي أين تتعدّد وتتقابل دور تقليدية وأخرى حديثة، قديمة وأخرى مرمّمة أو تتعدّد الأصول الفضائية والرتب الإجتماعية لشاغليها.

لكنّ ما يلاحظ هو نزعتها في الغالب إلى المزج بين الأصالة والحداثة، التقليدي الأصيل والجديد المستحدث، على مستويي المواد والفنّ التزويقي للواجهات. أمّا إذا اتّصل وجودها بالبناءات الفردية أو الجماعية الجديدة، فإنّ ما نلاحظه هو اتّجاهها إلى إعادة إنتاج الموحّد والمشترك معماريا وجماليا أي الحفاظ على المظهر ذاته، في سياق يعيد إنتاج تجانس ووحدة معمارية وجمالية.

فكلّما تواجدت الفئة المحظوظة ماديا في فضاء تختلف معه تنزع إلى مظهرة اختلافها ورتبتها الاجتماعية على واجهة الدار، في حين تتّجه إلى التماثل مع الآخر المجاور أو المقابل والمساوي لها اجتماعيا. فإذا نظرنا إلى المجمّع السكني المجانب للسوق على نهج "سيدي بوحديد" أو المحاذي لنهج "مدنين" والذي يفتح على نهج "سيدي بوحديد" عبر مدخله الحامل لتسمية نهج " روبين" والمنفتح على "نهج الغرياني" المتفرّع عن نهج "مدنين"، نلاحظ التجانس في واجهات الشقق (ألوان جدرانها وشبابيكها وشرفاتها المحافظة على تماثلها منذ بعثها سنة 1973م ثمّ سنة 1981م). لكن الملاحظة أيضا هو أنّ هذا المركّب التجاري والسكني المفضي خلفا إلى نهج مدنين عبر نهج الغرياني مثلا يكشف عن وجهين: نسجّل ضمن الوجه الأوّل نزعة التمثل وهو المطلّ على شارع " سيدي بوحديد "، في حين أنّ الجانب المنفتح على نهج "مدنين " أين تختلط أشكال المباني وحالتها ومعماريتها والانتماء الإجتماعي لشاغليها يكشف عن سلوك البعض من شاغلي هذا المركّب مظهرة تميّزها الإجتماعي على واجهة المسكن أي عنونة الواجهة مجتمعيا كشكل دلالي تواصلي مع الآخر عبر واجهة الدار. يمسّ فعل التدليل الفضائي على المكانة المجتمعية للذوات الإجتماعية، واجهة الدار: تجديد الأبواب وجعلها أكثر فخامة وتجميل إطار النوافذ والباب إلى غير ذلك.

تتّجه الشريحة الأكثر حظّا ماديّا والتي تشغل فضائها الخاص ضمن الأحياء القديمة للمدينة التاريخية إلى انتهاج سلوك فضائي يجمع بين التحديث والتأصيل للدار في واجهتها مثلما في معمارها. ففي حين تحافظ على الشكل التقليدي للباب مثلا مع تجديد مادته وصبغته أو لونه تعمد إلى تجميل إطاره

وأرضيته الأمامية (العتبة) بشكل فنّي مغاير لا يتّصل بالشكل القديم. فهي بذلك تهدف إلى التجسيد المادي لرتبتها الإجتماعية أو لإرتقائها الإجتماعي، على الفضاء المشغول في ظاهره المعطى لتأويل الآخر أي تهدف إلى تقديم صورة للآخر الأهلي (أهل الحي أو أهل النهج) أو العابر أو الغريب مثلما يرضيها أو مثلما تريد لا مثلما تفرضه المكان أو النظرة الأخرى له. وتتوسّط الواجهة أو المظهر الخارجي للدار بين شاغلها وقارئها بإعتبارها تستحيل بهذا المعنى عنوان للمكانة الإجتماعية مثلما هو معطى لقراءة وتأويل إندماج شاغليها في فضائهم المديني. فالفضاء لغة يتكلّمها الناس رمزيا ويتواصلون عبرها وبها مع ذواتهم ومع الآخرين. فلسنا أمام تواصل خرس بل لغة يقتضي فكّ رموزها وفهم مدلولاتها المعرفة بالفاعل الاجتماعي الذي يبثّها ويوجّه رسائلها المشفّرة ماديّا وجماليّا ومعماريا.

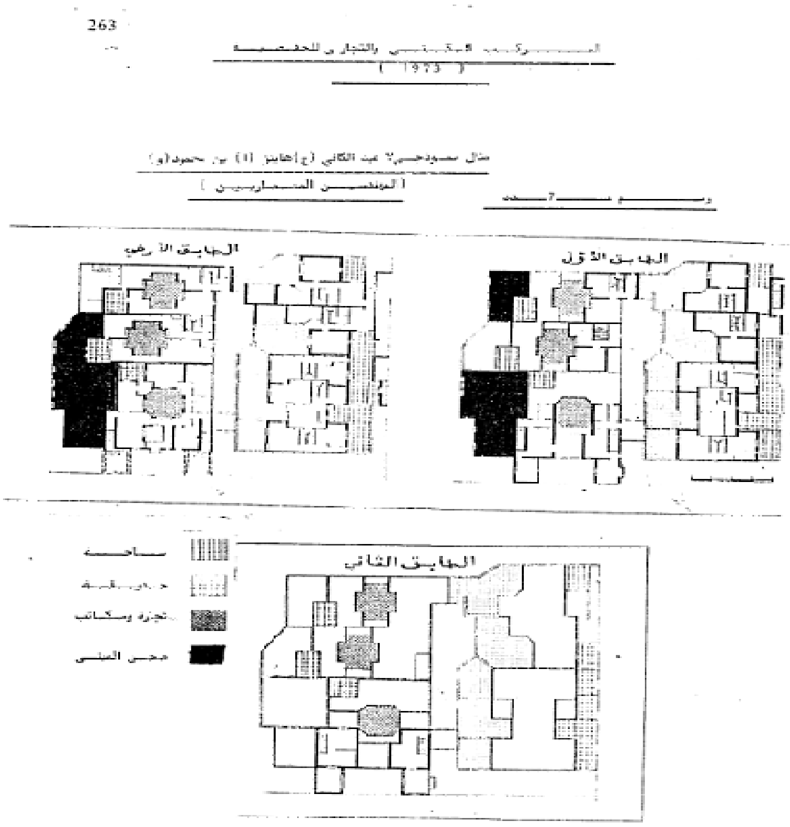

أ – نزعة العنونة الإجتماعية لواجهة الدار

يقلّ تواتر نزعة التغاير والاختلاف الفضائي ضمن الأحياء كلّما صعدنا في أقدمية التواجد ضمن المنطقة. "**فالأقدم** احتلالا لدورهم وفضائهم التقليدي من المدينة التاريخية **أقلّ نزعة إلى التباين والاختلاف** على صعيد الفضاء.

فهي تستبدل اظهار تميّزها واختلافها عبر الجوانب المعمارية أو الجماليّة بالشرعية التاريخية لانتمائها للمكان أو هي جزء من تاريخ هذا المكان. فهي لا تحتاج لأن تقول رمزيّا عبر الفضاء مكانتها الاجتماعية لأنّها ببساطة مرسومة في أذهان الناس، أمّا الأقلّ أقدمية في الفضاء المشترك والذين شغلوا دورا {معلميّة} أي دورا لبرجوازية المكان بالأمس والذين غابوا عن المكان ماديّا لكنّهم حاضرين في تاريخ المدينة المعلوم منه والمتداول، الموثّق منه أو المروي، فيعمدون إلى بلورة هذا الفضاء ليصبح خاصّا أو له مدلولا خاصّا. هم لم يغيّروا المعمار ولا تاريخه بل أضافوا ما يحيل إليهم والى ذوقهم وتصوّراتهم والى صورتهم لدى الآخر التي يريدون رسمها فضائيّا وماديا أي دلاليّا وبالتالي تدوين الفضاء رمزيا. فحينما يضعف الاندماج الاجتماعي يقوى توظيف او اعتماد الفضاء كجسر تواصلي ضمن فضاء المعاش اليومي. فالتستّر الفضائي عبر أي" فاصل مادي بين الخاص والعام / الداخلي الخصوصي والمشترك، هو فعل ثقافي رمزي. وهو سلوك قصدي مفتعل لكونه يفتعل المنتج لأنّه يغيّر القائم أو الحاصل في هيئة أو مظهر أو معمار الدار أو بعده الجمالي. فأن يمدّد الفاعل عموديا السور الأمامي للدار التي تسلّمها بامتداد

متوسّط للسور، هو رفض لنوعية العلاقة المعطاة أو المملاة بين داخل وخارج متنافذين لصالح فكرة أنّ الداخل خاص وكلّ خاص مقدّس وكلّ مقدّس هو حرمة. هذه الحرمة للداخل هي ثقافة الشاغل التي تتعيّن ماديّا في هذا السلوك. فأن يتّجه الشاغل إلى خلق حاجز مادي/ بصري للشرفة أو عبر تعلية سور الدار أو على الشبابيك المطلّة على الشارع هو سلوك ثقافي يحيل إلى قيم ومعايير وتصوّرات وتمثّلات ولكنّه أيضا سلوك اجتماعي يحيل إلى أسلوب اندماج الذات الاجتماعية ضمن العام الذي هو الفضاء المديني، يتداخل ضمنه الواعي باللا واعي.

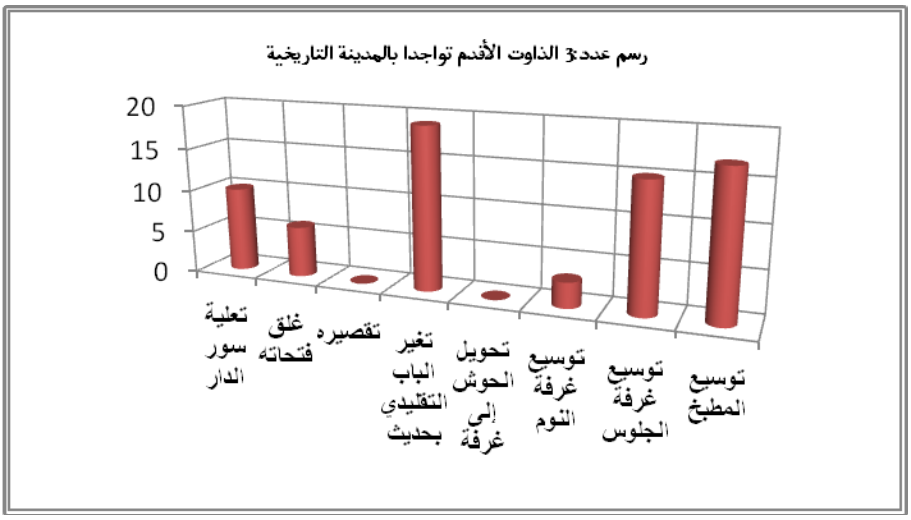

لا يفضي الخارجي من فضاء الدار، دائما، وآليّا الى داخله. فهذا ما لا نقول به ولكن جدلية الداخل والخارج تخضع لميكانيزمات أو إوالية تحيل إلى إرتباط بين صورة الظاهر من الفضاء الخاص – واجهة أو وجه أو المظهر الخارجي للدار وصورة شاغله لذاته ولفضائه اليومي –. ويشتغل الخارجي من الفضاء الخاص أو الظاهر من المخفي، كقناة تواصل بين شاغله وفضائه المشترك (المدينة) وبالتالي يتحدّد بهذا التواصل وطبيعته وهو ما بيّناه عبر الفئة المحظوظة ماديّا بين وضعيتين مختلفتين وفضائين مختلفين.

إنّ الفضاء المديني، بهذا المعنى مسرح تزدوج وتتعدّد أدوار لاعبيه أو بعبارة أدقّ تزدوج أبعاد أدوار الفاعلين ضمنه[3] (Maffesoli,1979).فصورة الواجهة كمؤشّر على الصلة الديناميكية والتبادلية بين الفضائي والاجتماعي وبين الداخل والخارج هي جدلية الذاتي والخاص والعام والمغاير.فأن نتغاير مع المغاير أو نتماثل مع المشابه أو نشابه المغاير ونتغاير مع المشابه عبر هذا السلوك الجمالي الممارس على واجهة الدار ومدلوله الرمزي، هو أسلوب تواصل مع المشابه أو المغاير أو التكيّف مع الدائم أو الجديد. فالفضاء هو "صلة عينية بين وجودي والعالم الذي يحيط بي" [4]. (Zanned,1984) وفضاء للّعب ولمظهرة، لا فحسب، رتبته الاجتماعية بل افتعال هذه الرتبة أي يتّخذ بعدا تضليليّا لا يتّصل بالموقع الاجتماعي لشاغله بل أيضا نمط حياته ضمن داخل هذا الفضاء الذي يتّخذ لدى البعض وجهين: خارج معطى للآخر لا يمظهر ولا يعكس دائما أو بالضبط داخل يظلّ ذاتيّا وخاص يتّصل بالثقافة الجماعية وتصوّراتها للفضاء، لا يندرج أو لا يؤطّر هذا السلوك في ما تسمّيه بوشرارة زنّاد بممارسات المقاومة التي تبديها الذوات الاجتماعية عبر الفضاء واستعمالاته بل هو سلوك أو فعل إجتماعي يحيل إلى تصوّر خاص للاندماج الفردي والجماعي ضمن الفضاء الجديد أو ضمن التحوّلات التي استوعبها الفضاء الذي تشغله الذوات منذ زمن معيّن. لسنا أمام ممارسات مقاومة فحسب بل يتداخل ضمن هذا السلوك الفضائي رفض التهديد الذي يحمله الاختراق الريفي للفضاء المديني من دفع للأشكال التقليدية لشغل واستعمال الفضاء الخاص والعام/الداخلي والخارجي وتمظهراته المعمارية والجمالية والاجتماعية للتصوّر الذي تحمله الذوات الاجتماعية أو تتمنّاه أو تعمل على ترويجه عبر فعلها في فضائها حول مستقبل الحي التقليدي أو يحمله الجديد لهوية الحي التقليدية والتاريخية الذي هو تهديد لهويات الجماعات المشكّلة لبنيتها، مع التوجيه غير الواعي للسلوك الفضائي.

فثقافة الجسد، في صلة بالفضاء، تطرح على مستوى اللاوعي أكثر منه الوعي. تتعلّق بالموروث المستبطن والموجّه للتأثيث الجسدي للفضاء أي حركة وانتقال الجسد ضمن وعبر الفضاء التي يتكيّف معها الفضاء في توزيعه الوظيفي

– الإستعمال – وهيئته ومظهره الجمالي مثلما بيّناه سابقا عبر شرفة الدار أو المسكن. إنّنا أمام تبادلية بين الفضائي والاجتماعي تتداخل ضمنها استراتيجيات إندماج دفاعية ولا تحيل دائما إلى جماعة اجتماعية معيّنة. فيحصل أن تتراوح إستراتيجية فاعل الاندماجية بين مسايرة التغيّر والتواصل مع الماضي التقليدي الذي هو ماضي الذات، يختلف توزّعه بين الداخل والخارج من جماعة إلى أخرى. يتداخل الحديث (نمط السكن ومورفولوجية الحي والأشكال المعمارية والجمالية ذات المرجعية الأوروبية) والتقليدي (اي المميز للمعمار العربي الاسلامي) في الظاهر من الفضاء الخاص مثلما الخفيّ منه أي الداخل لدى الجيل الثاني من سكّان منطقة " الحفصية ". تحمل هذه الجماعة التي يشكّل التقليدي على مستوى الخاص والعام الفضائي والاجتماعي ذاكرتها، مشروع تأويل واستيعاب للجديد لا يصنع القطيعة مع الذاكرة أي الماضي المتجسّد في الممارسات الجسدية والفضائية، بفعل اتّساع وتخارج جغرافيا حركة وانتقال جسدها في الفضاء أي خارطة فضاء نشاطها وتفاعلاتها المجتمعية[5]. يتكيّف هذا المشروع مع الجديد في نفس الوقت الذي يتّخذ منه مسافة فاصلة.

إنّ استيعاب التقليدي للجديد هو شكل من أشكال التكيّف مع التغيير. وهو سلوك إستراتيجي لكونه لا يتّصل بالجديد ذاته بقدر ما يشكّل وسيلة لتشكيل الخطاب الفضائي الذي هو خطاب مجتمعي عبر سيميائية الواجهة والمعمار والفعل الجمالي في الفضاء المادي الذي يستحيل إلى فعل رمزي تواصلي. ويتغاير تواصل التقليدي مع الحديث أو العكس بين الداخل والخارج وبالنظر إلى إستراتيجيات إندماج الفاعلين في فضائهم المديني العام الذي هو الحفصية هنا. يكشف هذا التنافذ بين الفضائي والمجتمعي عن دلالية ورمزية الفضاء كمنظومة يمظهر ضمنها الفاعل تصوّراته وتمثّلاته وذاكرة الفضاء الجماعية مثلما أهدافه وغاياته وزاوية تمثّله للتغيّر وتكيّفه الإستراتيجي معه. ممّا يعني أن الذات المجتمعية الشاغلة لفضائها ضمن المديني تطرح كفاعل يتّصل فعله ضرورة بالتوجيه القيمي والمعاييري الجماعي لسلوكه مثلما بالمضمون العقلاني لسلوكه الفضائي. يتلقى الفاعل المديني تأثيرات الفضاء الإجتماعي التي تنعكس على فعله في فضائه الخاص لكنّه يصوّر أو يقدّمه كصورة فضائية عن هذا العام/ المشترك، هي في الأصل صورة عنه وعن تصوّراته وعن مواقفه من الفضاء المديني الذي يحيط به.

ب- تداخل التقليدي والحديث ضمن الخارجي والداخلي من الدار

نقف، في هذا المجال المبحثي من دراستنا، على اتجاهين متعاكسين للجدلية المستقرّة بين الداخل والخارج في توازى مع التقليدي والحديث لدى متعدّد شاغلي فضاء المدينة التاريخية يتباين ويتغاير في مدى حدّته وكثافة حضوره في السلوك والممارسة الفضائية. فكلّما تدرّجنا صعودا من الأقلّ إلى الأكثر حظّا اقتصاديا من اقدم ساكني المنطقة تقلّص هذا التداخل بين التقليدي والحديث على صعيدي الداخل/ الخاص والخارج/ المشترك مثلما بين تقليدية أو حداثة الخارج أي واجهة الدار بأبعادها الجمالي والمعماري والاستعمالي وما هو عليه الداخل أي الإستعمال الذي يقيمه شاغله لأجزائه (غرف) ومكوّناته (أشيائه). وهو ما يفرض إعادة استحضار ما تمّ ملاحظته من نزعة التغاير ومظهرته فضائيا: معماريا وجماليا على واجهة الدار: سورها، لونها، وهيئته المادية، بمعنى امتداده البصري بالنظر إلى داخله والبعد الجمالي لظاهر الواجهة، حيث تضعف هذه النزعة أو هذا السلوك كلّما انتقلنا من التغاير إلى التماثل اجتماعيا بين شاغلي الحي.

أمّا الاتجاه الثاني والمعاكس فيثيره متغيّر أقدمية التواجد لدى الفئة الإجتماعية متوسطة الدخل الأسري: حيث أنّنا نقف بصفة جليّة (من خلال الجدول البياني عدد 5) على اتساع هذا التداخل الملاحظ بين الحديث والتقليدي للواجهة مثلما للممارسة الفضائية ضمن الداخل (الفضاء الخاص) كلّما نزلنا من الأقدم إلى الأقلّ تواجدا ضمن فضاء المدينة التاريخية " الحفصية ".

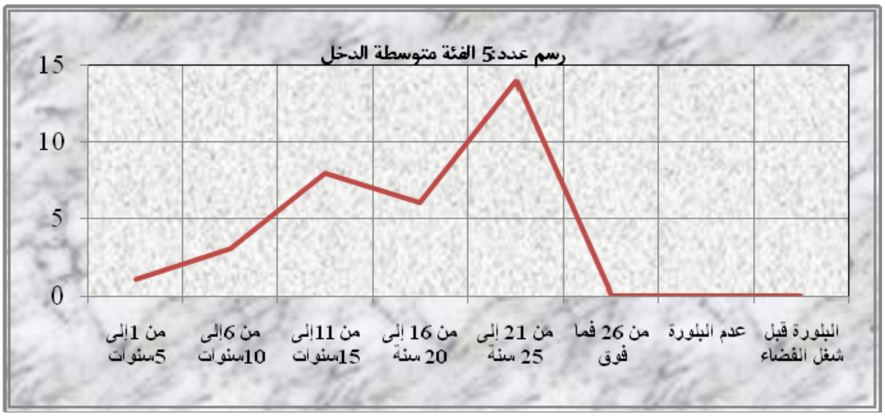

لا يمكن استنتاج ذلك عبر الاستجواب. لذلك قدّمت لنا تقنية الملاحظة الموجّهة الميدانية اكتشاف هذا التباين الذي يلاحظ بصفة أكثر تواترا لدى الفئة متوسّطة الدخل الأسري من "بَلْدِيَةْ"[6] الجيل الثاني. بين المظهر الخارجي للدار ومورفولوجية الداخل التقليدي، فهي تنزع بفعل ارتقائها الإجتماعي إلى مظهرة ذلك على واجهة المنزل. وتحاول عبر اللون والزينة والشكل تعيين رقيّ ذوقها الذي تعتقد فيه أو تريد أن يعتقد فيه الآخر الشاغل لذات النهج أو الحيّ.

إلاّ أنّ اختراق الحديث لا يقصي نهائيّا أو يصنع القطيعة التامّة مع التقليدي الذي يسجّل حضوره في تداخل مع الحديث على الخارجي من الخاص مثلما الداخل. يتراجع هذا التباين والتدخّل في إتّجاه غلبة الجديد والحديث أي استيعاب الفضاء للتغيير كلّما صعدنا في المستوى المادي ونزلنا في أقدمية التواجد. معنى ذلك أنّه كلّما انتقلنا صعودا في أقدمية شغل الفضاء الخاص والحي كلّما ضعف حضور الجديد والحديث وتعيين ديمومة وتواصل الحاضر مع ماض لا تختزنه الذاكرة فحسب بل تمظهره في سلوك إعادة إنتاج كيفيات شغل وتوظيف الفضاء واستعماله التقليدي. لسنا أمام تقليدية مفرطة أو غياب كلّي لاستيعاب أقدم أصيلي المنطقة من ذوي الدخل الضعيف والمتوسّط للتحوّلات التي تعرفها الحفصية بل يعرفها كلّ حي وكلّ نهج ولكن ليس كلّ زقاق. الأزقّة هي أكثر الفضاءات المشتركة تواصلا[7] بالماضي معماريا وجماليا وأكثرها استيعابا للقيم الجماعية والطابع الجماعي للحياة الإجتماعية. هنا في هذه الأمكنة الضيّقة التي لا تسمح أحيانا إلاّ بمرور شخص واحد أو تفرض على داخليها أن يصطفّوا الواحد خلف الآخر كأنّهم في استعراض أو هي بذلك تنظّم وتحتوي هذا الاختراق لهذا الخاص المشترك بشكل يحوّله إلى فردي، يتجلّى بوضوح تردّي البناءات واهتراء مادتها وألوانها. فحين تمرّ تجد بناءات مهدّمة تهاوت جدرانها والباقي منها مهدّد في أيّ لحظة بالانهيار. فهي فضاءات تلفظ الداخل إليها إذا كان غريبا لكنّها تحتضن شاغليها حالما يلجون مدخلها: فهي إن أغلق منفذها الضيق تتحوّل إلى بيت جماعي أو وكالة حديثة المورفولوجيا. يفصل بين أبواب المنازل التي تتحوّل إلى غرف لها وسط فارغ، (حوش) بل ممرّ (couloir)، وسط لا يتجاوز عرضه أحيانا المتر الواحد.

إذا كانت طبقة أصيلي المنطقة الأكثر حظّا ماديّا تميل إلى مظهرة تفوّقها كلّما اتّصل ذلك بوجودها بفضاء عام / مشترك خليط اجتماعيا ومعماريا. وهي تنزع إلى التماثل حين تشغل فضاء مديني تشترك أو تتقارب فيه الرتبة الإجتماعية لشاغليه، فإنّ الفئة المتوسّطة ماديّا تبدي سلوكا فضائيا يكشف عن تداخل بين التقليدي والحديث في مظهرتها لتصوّر أسلوب اندماجها وتكيّفها مع تحوّلات الفضاء العام، أكثر وضحا لديها ممّا يلاحظ لدى الفئة المحظوظة. يضعف هذا التداخل مع الفئة الأقلّ حظّا ماديّا مثلما الأقدم تواجدا في فضائها الذي تشغله وتتواصل عبره رمزيّا مع ماض حاضر في الذاكرة والسلوك الفضائي اليومي وتجلّياته العينية.

أمّا " البَلْدِيَة " الجدد [8]فيحملون تصوّرا اندماجيا يتغاير بالنظر إلى نفس المتغيّرات: الرتبة الإجتماعية ونوعية الفضاء المديني (التقليدي– الحديث). إلاّ أنّ الأكثر حظّا منها، اقتصاديا، تختلف مع الجيل الثاني من ذات الفئة المادية في جنوحها إلى التدخّل التحديثي في الفضاء الخاص في الظاهر منه للآخر. ففي حين نلاحظ احتفاظ الجيل الثاني بمعمارية الدار التقليدية في شكلها الجديد ومورفولوجية الداخل رغم بعض التدخّلات Intervention الجمالية المحدثة على واجهة المنزل، فإنّ شاغلي الفضاء التاريخي، الجدد ينزعون إلى تغيير مقوّمات المعمار التقليدي للفضاء التاريخي بأشكال مختلفة عنها كإستبدال شكل القوس بالمستطيل أو المربّع، فيما يتّصل بإطار الباب أو الباب الخارجي ذاته، أو وضع بطاقة رخامية على إطار الباب أو بلاستيكية أو خشبية على الباب تعيّن Indique هوية شاغل الدار أو غلق الشرفات عبر نوافذ بلورية داكنة تحجب فضاء الشرفة وتحوّله إلى جزء من قاعة الجلوس خاصّة أو غير ذلك ممّا لا تبدو أهميته في ذاته بل في الدلالة التي تضع التحليل أمامها

هذه الدلالة ثقافية واجتماعية: ثقافية بإعتبار كونها تحيل التحليل والتعقّل على ثقافة الجماعة أي شاغلي الفضاء وقيمها ومعاييرها وتصوّراتها ونمط حياتها، واجتماعية لكونها تحيل إلى نظرة الفاعل لفضائه وموقفه منه وللتحوّلات التي يعرفها. فهذا السلوك الفضائي هو سلوك رمزي يتّصل بالثقافي في علاقة الفاعل بفضائه وصورة الفضاء ما بعد الاستعمال الذي يقيمه له الذوات الإجتماعية ولكنّه اجتماعي لكونه معطى لتأويل كيفيات اندماج الفاعلين في فضائهم الاجتماعي وتكيّفهم مع المتغيّرات.

إنّ جدلية الداخل والخارج تضعنا أمام جدلية الفضائي والمجتمعي. فقراءة الفضاء هي تأويل سوسيو ثقافي للاستعمال أي المستعمل الذي هو شاغله أي الفاعل الإجتماعي الذي يتلقّى تأثيرات الفضاء الإجتماعي لكنّه يتواصل معه عبر منظومة رمزية دلالية.

2- أقدمية التواجد بالفضاء التاريخي وبلورة[9] الفضاء الخاص

يستجيب فعل التدخّل في فضاء السكن إلى تمثّلات وتصوّرات شاغليها للفضاء مثلما إلى أهداف الفاعلين من

تواجدهم واستمرارهم في هذا الفضاء التاريخي بأحيائه التقليدية أو الجديدة. إلاّ أنّ دلالاته تتغاير بالنظر إلى زمن فعل احداث تغيّرات في الدار أو المنزل مثلما بالنظر إلى متغيّر أقدمية التواجد بالفضاء المديني. ينزع أقدم سكّان المنطقة اليوم أكثر من الجدد إلى إدخال تحسينات على المسكن قبل شغله نهائيا على غرار الفئات الأضعف ماديّا. أمّا الجيل الوسط فلم يتعمّد تغيير أي شيء في مسكنه قبل شغله.

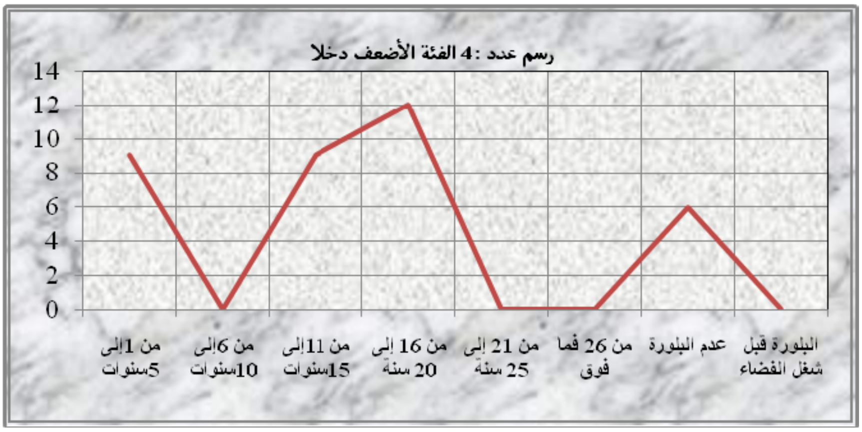

ما يلاحظ، أيضا، أنّ أقدم سكّان المنطقة أقاموا تغييرات فري فضائهم السكني إمّا قبل شغله أو ما بين سنة ووخمسة سنوات من تملّكه. أمّا لدى سكّان المنطقة الجدد، فإنّ الذين قاموا بذلك قبل السكن بالمنزل المقتنى أو الموروث يعادل عدد الذين قاموا به بعد عشرة سنوات (ما بين 11 و15 سنة) من شغل دورها. إلاّ أنّ أغلب عيّنة البحث من سكّان المنطقة الجدد انتظروا ستّة سنوات (ما بين 6 و10 سنوات) ليدخلوا على فضائهم الخاص تحسينات ما. أمّا الجيل الثاني فغالبيته لم يتدخّل في فضائه الخاص قبل احتلاله ولم يتمّ ذلك إلاّ بعد 10 سنوات (بين 11 و15 سنة)، النتيجة إذا أنّ خطّ أقدمية الحضور بالفضاء التاريخي "الحفصية" صعودا أو نزولا يتوافق مع خطّ زمن التداخل في الفضاء وتهيئته ليستجيب لمعايير الجيل وتصورّاته للفضاء. تتّسع دلالات هذا الفعل الذي يشمل الأبعاد المعمارية والجمالية والمورفولوجية أيضا لتشمل المجتمعي مثلما الثقافي.

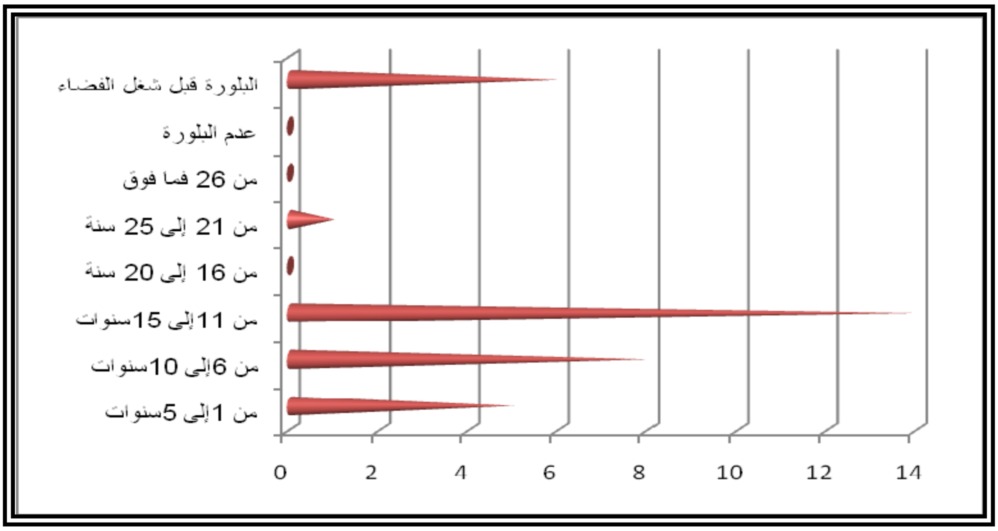

احتفظت أغلب عيّنة أقدم سكّان المنطقة " الحفصية " بفضائها الخاص كما هيئته أو بعد شغله بزمن قليل (من 1 إلى 5 سنوات) إلى الآن ما عدى ما يعود إلى الترميم الذي تفرضه الضرورة. وهو ما يتوافق مع تعبير غالبيتها على أنّ فضائها الخاص هو، بالتساوي، عالمها الخاص وذاكرة حيّة.

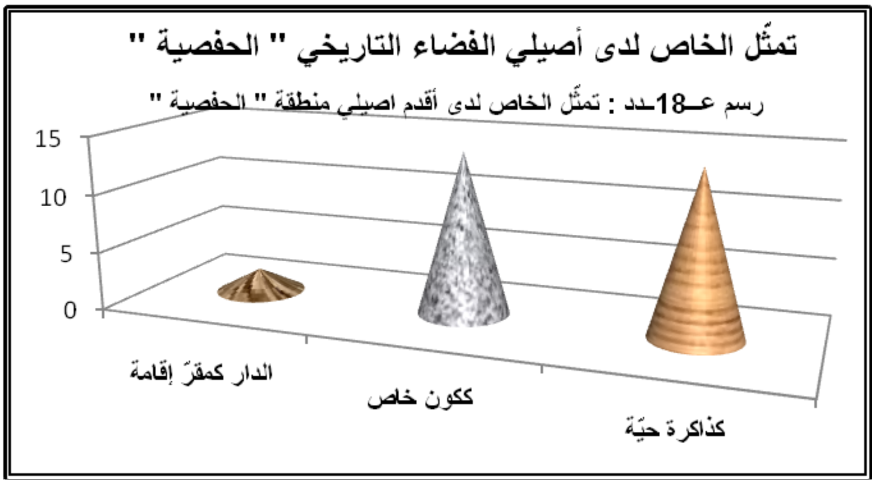

إنّ امتناعها عن بلورة أو إدخال تغيّرات على فضائها الخاص الظاهر والضمني منه/ الفارغ والمبنيّ/ هو تواصل رمزيّ مع هوينها الثقافية ومع ذاكرتها الفضائية أي مع ماض تُمَعْلِمُهُ أي تحوّله إلى مَعْلَمٍ Monument عبر الاحتفاظ بأشيائه هنا وهناك من مساحة الدار مثلما استمرارية ممارسات، يصنع التغيير في الفضاء العام القطيعة معها كتربية أنواع من الحيوانات الأهلية ذات الإستعمال اليومي أو المردودية الاقتصادية (الدجاج، الأرانب، الحمام) أو التخزين الغذائي (العُولَهْ من الكسكسى أو الفلفل أو اللحم المشرّح والمجفّف...). "فأقدم شاغلي الفضاء التاريخي" يحتفظون بجزء من الدار كفضاء للتخزين يحتاجونه على امتداد سنتهم كما يحتفظون بالتوزيع الوظيفي للغرف وترتيبها الفضائي بالنظر لا إلى الوسط الفارغ بل إلى مدخل الدار. حيث تحتفظ غرفة الاستقبال بتموقعها الرأسي المحاذي للمدخل. فأنت تجدها مباشرة على يمينك أو شمالك حالما تتقدّم مترا أو مترين خلف الباب الرئيسي أو يفضي إليها معبرا قصيرا متعرّجا أو تفتح على وسط الدار. وهنا تجدها في الغالب لدى أقدم " البلدية " الذين ينظرون إلى أنفسهم كماض فضائي واجتماعي بدأ يتّخذ طابع المَعْلَمِيَةِ أو المتحفية بعبارة " جودي "، على نفس خطّ غرفة النوم تفصلها غرفة الجلوس (بيت القْعَادْ) لدى الفئات المتوسطة والقادرة. تكشف العلاقة الخطيّة Linéaire بين غرفة الجلوس أو الاستقبال وغرفة النوم أي بين المباح والممنوع، المعطى للاختراق والمقدّس، عن تقليدية تكيّف وتنظّم حركة الآخر الأهلي أو الغريب داخل فضاءات الداخل الذي هو الدار بالنظر إلى ثنائية المقدّس والمدنّس، المباح والمحرّم، المسموح به والممنوع، المظهر والمخفيّ.

لا يتعلّق فعل البلورة أو إدخال تغيرات على داخل أو خارج الدار بالمستوى المادي للفاعلين. ذلك أنّ كلفة البلورة يحصل ربطه بالقدرات المالية يكون ذلك صحيحا إذا وجدنا سلّما تصاعديّا في زمن الفعل يوازيه خطّ تنازلي من الأضعف إلى الأكثر حظّا ماديّا. إلاّ أنّ التحليل الحاسوبي لمعطيات أو البيانات في ربط بين بلورة فضاء السكن والمستوى المادي سكّان منطقة " الحفصية " أفضى إلى نتيجة أنّ الفئة الأضعف أدخلت تحسينات على فضاء سكنها ما بعد 15 سنة (ما بين 16 و20 سنة) (انظر الرسم عدد: 4 بالصفحات السابقة)،في حين تمّ ذلك لدى الفئة المتوسّطة بعد 20 سنة (ما بين 21 و25 سنة) (انظر الرسم عدد: 6 بالصفحات السابقة). أمّا من تمّ لهم ذلك ما بين السنة الأولى والخامسة من شغل فضائها الخاص من الفئة الأضعف مدخولا أسريا فتبلغ نسبتهم 25%، في حين لا تبلغ نسبتهم لدى الفئة المتوسطة سوى 5،50 %.

إنّ سلوك بلورة فضاء السكن قبل أو بعد شغله يستند إلى عوامل تتجاوز الأرضية المادية لها لتتأطّر في السياق الثقافي للفعل الإنساني الذي يتعارض مع الصبغة التحديدية للفعل الإنساني خاصة في بعدها الاقتصادي أو المادي. فالثقافي الذي يتعالى فهمه وتعقّله على المناهج الكميّة ومعادلات الارتباط التي تصيغها بين متغيّرات تابعة وأخرى مستقلّة تمثّل غاية البحث ن يستدعي مقولة التأويل والفهم لسلوك الذوات الإجتماعية في تواصلها مع فضائها الذي هو

تواصل رمزيّ واجتماعي يحيل إلى كلّ الرأسمال الثقافي والرمزي لمستعملي الفضاء مثلما تصوّراتهم لذواتهم ولفضائهم المديني وموقفهم منه. إنّنا نحتاج إلى مراجعة مفهوم التنمية خارج الكبرياء عن معالجة اليومي والمعاش أي معاش كل الناس في كل الأيام بإسم الماكرو- سوسيولوجية أو مقولة كون التجزئة تضعف حظّ السوسيولوجيا من الإحاطة بالظاهرة السوسيولوجية.

إذا كان العامل الاقتصادي لا يشكّل مرجعا لتفسير فعل البلورة للدار أو المسكن، فإنّه يصبح عاملا هامّا من بين العوامل المفسّرة للوضعية العمرانية للفضاء المديني في بعده الجمالي خاصة كما يبدو في الحالة المادية للبناءات المتردّية والمؤهّلة لحالات أسوأ مثلما في إهمال مظهرها الخارجي الذي يعود إلى عجز الفئات الضعيفة عن مصاريف تجميلها وصيانتها. لكن هذا المظهر لا يعود، فحسب، لهذا العامل، فالدور التي تكشف عن إهمال لها يعود لا إلى وضعيتها أي كونها لمالكين لا يشغلونها ولكن يسوّغونها منذ زمن بعيد بمعاليم متواضعة أو متوسّطة لا تشجّع المالكين على صيانتها. على أنّ عدم صيانة مالكيها لها يعود إلى ضعف قابليتها للربح التجاري أي البيع. وهي الوضعية التي انتهت إليها جمعية صيانة المدينة في مشروعي 1973م و1981م لإعادة تهيئة الحفصية. حيث وضعت حلاّ لتطويق، لا فحسب، الحالة المادية للعمران الحضري بل أيضا للنسيج العمراني لمنطقة "الحفصية " يتمثّل في تمتيع مالكي الدور المتردّية والآهلة للسقوط قروضا ميسّرة لترميمها مع التوصية بمراجعة معاليم الكراء في حدود تراعي مصلحة المالك والحالة المادية لشاغليها من ذوي الأصول الريفية في معظمهم.

3- الدلالات الرمزية والاندماجية لفعل بلورة الفضاء

أدخل أصيلي منطقة " الحفصية " الجدد ترميما كليّا للمسكن سواء قبل أو بعد شغله. ولا يعني الترميم الكلّي الذي أدخلته على فضائها إعادة بناء أو تجديد مورفولوجيته التقليدية نحو نمط حديث كلّي بل المقصود أنّ فعل البلورة شمل كل الفضاء السكني بأشكال مختلفة. لكن حينما نصعد في أقدمية التواجد بالحفصية وبالفضاء المحتلّ ضمنها نلاحظ أن هذه الصبغة (البلورة لكل الفضاء الخاص) تتقلّص لتصل درجة الصفر لدى أقدم "**بَلْدِيَةْ**" الحي المديني (انظر الرسم عدد: 7 بالصفحات السابقة). تتّفق هذه النتيجة مع ما انتهى إليه التحليل سابقا، أنّه كلّما تدرّجنا نزولا في أقدمية التواجد تصاعد أو تكثّف فعل بلورة فضاء السكن.

لا تنزع الفئة الأضعف ماديّا إلى البلورة التّامة لكل المسكن أي أن يشمل فعله في الفضاء كلّ أبعاده المدية والمعمارية والجمالية، بل يقتصر على واجهة الدر أي المظهر الخارجي للدخل الخاص وتوسّعه في غرفة النوم أي الأكثر خصّا أو المقدّس من هذا الدخل الخاصّ. وهي، بذلك، تلتقي مع الفئة المتوسّطة في رفض تغيير المورفولوجية التقليدية للدار أي أنّه لم يقع ذكر تحويل وسط الدار التقليدي إلى غرفة لدى هاتين الفئتين إطلاقا على عكس ما نسجّله لدى الأكثر حظّا ماديّا، حيث يسجّل هذا البعد من الفعل في الفضاء الخص أكثر الأبعاد تناولا بنفس الدرجة أو النسبة المئوية لتغيير الباب التقليدي بآخر حديث. تتوافق هذه النتيجة مع ما سبق الوقوف عليه من حيث نزوع الفئة الأكثر حظّا ماديّا إلى مغايرة فضائها التقليدي في إتّجاه تجديدي وتحديثي يشمل واجهة المنزل مثلما عمقه التاريخي أي مورفولوجيا الداخل إذا تعلّق وجودها بفضاء تقليدي ضمن حيّ تتداخل ضمنه المراتب الإجتماعية والأصول الفضائية لشاغليه.

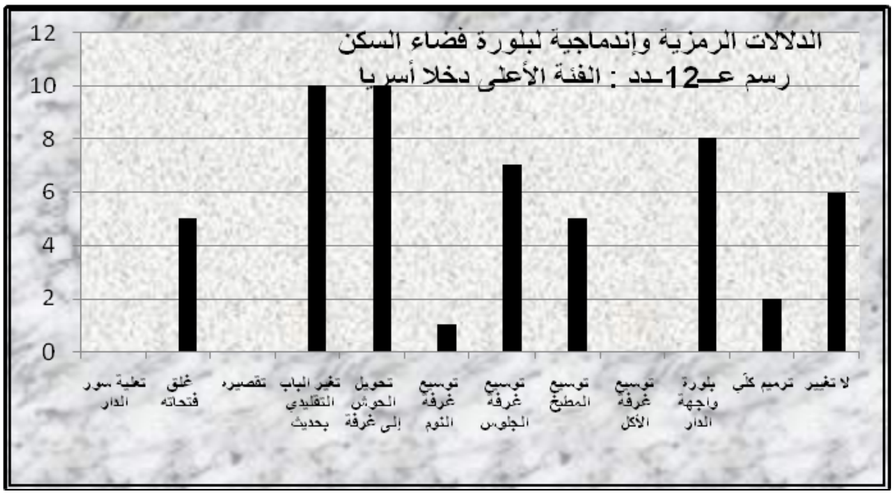

ما يلاحظ فعلا هو أنّ الفئة الأعلى دخلا هي الأقلّ نزوعا أو ميلا لإخضاع كلّ الفضاء الخاص إلى فعل البلورة وأنّ أعلى نزعة في هذا السياق تسجّل لدى الفئة متوسّطة الدخل في ظلّ غياب كلّي لهذا الاتجاه لدى الأضعف دخلا أسريّا من عيّنة البحث.

تمثّل غرفة الجلوس والاستقبال أكثر الوحدات الفضائية للداخل انفتاحا على الآخر أو الوافد وبالتالي أكثر فضاءات الدخل مظهرة للمستوى المادي لشاغله لذلك ليس من الغريب أن ينتهي البحث إلى معادلة: أنّه كلّما تدرّجنا صعودا في المستوى المادي لشاغلي فضاءاتهم الخاصّة كلّما تتكثّف نزعة مظهرة المكانة المجتمعية للذوات الإجتماعية. فالفئة الأضعف دخلا هي الأقلّ ميلا لتحسين وبلورة أوّل وأقرب فضاءات الداخل لتقديم صورة عن المكانة المجتمعية والحالة المادية له. قد يفسّر ذلك بعد اقتدارها المدى ولكن أن تدخل بلورة على فضائها الخاص فهي تضع سلّم أولويات لهذا الفعل وبالتالي يصبح ترتيب التدخّل الفضائي من ناحية ووظيفته التواصلية والرمزية من ناحية أخرى ذو دلالة تتجاوز التفسير المادي البسيط للظاهرة. وما يؤكّد حكمنا هو ما يلاحظ من توافق لهذه النتيجة مع ما توصّل إليه البحث في مجال أقدمية التواجد بالحفصية وفعل بلورة فضاء السكن، حيث بيّنا أنّ أقدم "**البَلْدِيَةْ**" يشعرون أنّهم يزدادون عزلة عن العام / المشترك مع كلّ تحوّلات سوسيو فضائية تعرفه الحفصية. هذه التحوّلات التي تعجز أو ترفض أن تتكيّف وتندمج معها. يقوّي ضعف اندماجها هذا ألفتها بفضائها الخاص والتمسّك بصلته المادية والرمزية بصورتها لذاتها لفضائها. قد تفسّر هذه العزلة وندرة التزاور أي تبادل التكشّف على الخاص كتعبير أو تمظهر مادي لضعف اندماجها في فضائها المشترك الأقرب إليها أي الحي أو النهج. ترتيب الأولويات في فعل بلورة الداخل الذي تقيمه والذي يعطي، بذلك أهمية لأكثر وحدات الداخل الفضائية خصوصية على حساب الفضاء/ الواجهة المجتمعية لشاغلي الدار التي تستقبل لكنّها تشكّل نقطة عبور نحو الأكثر خصوصية من الداخل. هنا نستقبل الآخر الأهلي أو الغريب وهنا ينتهي اختراقه لهذا الدخل/ الخاص أو عبره يمرّ إلى الأكثر خصوصية وبالتالي حميميّة (الحوش، بيت القعاد...).

نعود إلى سكّان منطقة " الحفصية " الجدد لنشير إلى نتيجة أنّ أكثر أجيال الحفصية نزعة إلى مظهرة رتبتها الإجتماعية وتغايرها الذي يجمع بين التوصل مع الامتداد أو الطبع التاريخي للفضاء العام / المشترك واستيعابه للجديد والحديث خاصة لدى أصيلي " **بَلْدِيَةْ** " المدينة التاريخية الذين كانوا يشغلون دورا عبر التسويغ (راجع ارسم عدد 09 بالصفحات السابقة). وتمثّل الحفصية بعد التهيئة، أرضية مناسبة للجمع بيت التأصّل والحداثة. فهذه الفئة لم تسعى إلى تعمّد التقليص من الحاجز البصري الذي هو سور الدار لكنّها وإن عمدت إلى تعليته فإنّها حافظت على فتحاته أي على ما يشكّل منفذا بصريا نحو الداخل الفاصل بين الباب الخارجي ومدخل الدار(راجع ارسم عدد 17 بالصفحات السابقة). فهي بذلك تراوح بين الانفتاح الكلّي والانغلاق الكلّي فمعها يمكن الحديث عن مفهوم الانفتاح الحذر والانغلاق المرن الذي يموضعه وسطيّا بين القدسيّة التّامة للدخل الخص المميّز لمعمارية الدار التقليدية في واجهتها التي تنغلق على الدخل وتخفيه تماما عن الخارج أي الآخر وبين الانفتاح المميّز للمعمارية الحديثة في شكل المنازل ذات حديقة أممية وسور يفصل بينها وبين الخارج لا يتّخذ دلالة الحاجز أو العازل أو المنع الرمزي بقدر م يشكّل تعيين مادي للفواصل الفضائية بين المتقابل والمتجاور من المساكن.

إذ كان السور ضمن الدور الحديثة لا تتجوز دلالته البعد المادي والجمالي فإنّها تتخذ مضمونا رمزيّا ومجتمعيّا ضمن نمط السكن التقليدي. فالفعل الذي تمارسه الذوات الإجتماعية على شكله قبل أو بعد شغله يتّخذ بعدا رمزيّا ودلالة اجتماعية يستندن إلى تصوّراتها الفضائية من ناحية وموقفها من الفضاء المديني المحيط بها من ناحية أخرى. وما يؤكّد هذا الاستنتاج لدينا هو مدى التوافق الذي نجده بين المضمون التقليدي لبلورة فضاء السكن واتجاه تعميق الوظيفة الحاجزية أو العازلة للسور أي مزيد تعليته وغلق فتحاته الموجودة. فهذا التوازي بين السلوكيين هو دعامة تحليلية لتأكيد دلالية هذا السلوك خارج ماديته خاصة مع خطّ أقدمية التواجد بالحفصية حيث نسجّل خطّا تصاعديّا في تواتر هذا السلوك لدى أصيلي منطقة "الحفصية" سواء الجدد أو الأقدم تواجد. ينسحب ذلك على عملية التمديد العمودي للسور كحاجز أو عازل مادي ذو دلالة اجتماعية ورمزية مثلما عملية غلق المنافذ فيه.

يتعلّق سلوك أو خلق الحاجز بالمساكن ذات الحديقة الأمامية. أمّا المنازل التي تشكّل واجهتها كما يقول chevalier أسوار تغلق على الداخل وتشكّل معابر الأزقّة [10] (chevalier, 1979) والأنهج ضمن الأحياء القديمة من الحفصية، فإنّ الملاحظة الميدانية المباشرة تضعنا أمام نفس الارتباطات بالنظر إلى متغيّر أقدمية التواجد بالفضاء التاريخي "الحفصية" والمستوى المادي للأسر. لكن مع أشكال أخرى تتجلّى عبر ما رأيناه في الفقرات السابقة حول شرفة المنزل أو نوافذها أو أبوابها، حيث يستبدل تعلية السور أو غلق فتحاته بتعلية النوافذ بحيث تتجاوز قامة المّار في الشارع فتصبح بعيدة عن مدى بصره أو الاتجاه إلى وضع لوحة مشبكه أسفل النافذة ما بين البلور والحامي

الحديدي أو تعمّد أن يكون الباب ذو جانبين بحيث يظلّ الواحد موصدا دائما والآخر يفتح حين الدخول أو الخروج بشكل يضيّق الامتداد الزمني لبصر العابر وإدراكه البصري للداخل بما يتعلّق ضمنه بالمقدّس والحرمة المتّصلة بسريّة الداخل أو حركة جسد المرأة وانتقالها داخل وبين أجزائه المكوّنة له.

4-الأصول الفضائية والمضمون التقليدي أو الحديث للتدخّل في فضاء الدار

يكشف، على خلاف المفترض، ذوي الأصول الريفية من شاغلي فضاء الحفصية اليوم والذين يقدّمون أنفسهم " **كبَلْدِيَةْ** جدد، عن نزعة تحديثية في بلورة فضاء سكنهم. فإبدال الباب التقليدي للدار أو المنزل بآخر حديث يشكّل أكثر الإحداثات التي أدخلتها على فضائها. يقترن ذلك مع تغيير واجهة الدار الذي يأتي في المقام الثاني، يليه مرتبة مسألة تعلية سور المنزل المقتنى بسور قصير. يفضي ذلك إلى استنتاج حتمي لوجود تداخل بين التقليدي والحديث في سلوك ذوي الأصول الريفية لا يغرّر باستعجال تأكيد نزعتها التحديثية. فالبعد التحديثي يتّصل، كما يبدو واضحا، بالبعد الجمالي لفعلها المادي.

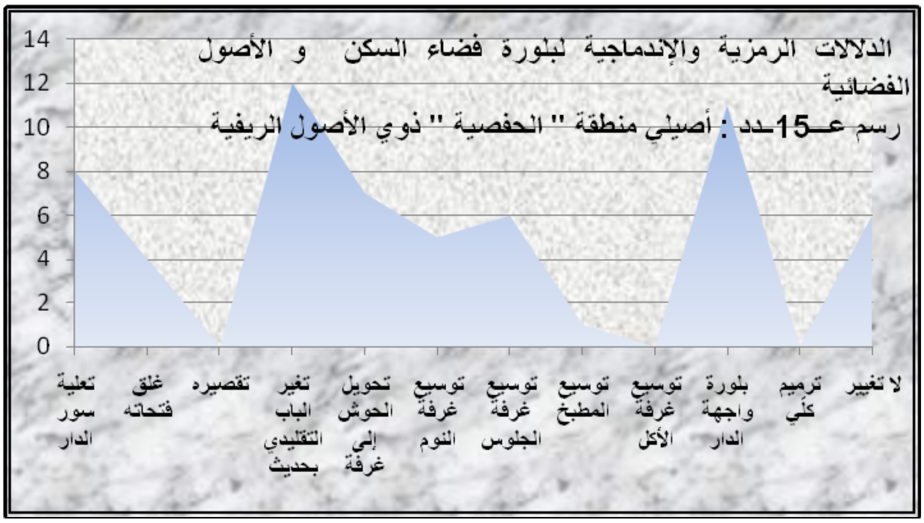

أمّا البعد التقليدي فيكشف عن رفض العلاقات وجه لوجه بين الداخل والخارج التي يقترحها المعمار الحديث. لذلك فالمضمون الأعمق لتدخّلها في فضائها يعيد إنتاج مفاهيمها وتصوّراتها وتمثّلاتها الريفية لنمط السكن وكيفية شغله في علاقة بالآخر المجاور والمقابل، الأهلي أو الغريب. ويشتغل السور لديها مثلما لدى الجيل الأقدم لأصيلي منطقة " الحفصية " اليوم وبدرجة أقلّ الجيل الثاني كعازل أو فاصل إجتماعي وبالتالي يحيل فعلها إلى مدلوله الرمزي والاجتماعي أي أنّ قراءته التحليلية تتجاوز التفسير العاملي Explication Déterministe إلى فهم التأويلي Interprétative Compréhension للتوجيه القيمي Orientation du Valeurs والمتّصل بأهداف الفاعلين من سلوكهم أو فعلهم المادي.

لم يخضع ذوي الأصول الريفية فضائهم الخاص إلى ترميم وتحسين شامل، في حين إتّجه لذلك ذوي الأصول التخومية أو الطرفية والمقصود بهم الوافدين على الحفصية من خارج السور الداخلي للمدينة العتيقة أي الربضين السفلي والعلوي: باب سويقة وباب الجزيرة. لم يخترق هؤلاء الفضاء التاريخي مباشرة بل استقروا خارجه والذين كانوا يسمّون" بالبْرَايْنِيَة"[11]. **فالسور بني من أجل أن يمنع هؤلاء من إختراق المدينة**. وقد مثّل دخول واختراق هذا الحاجز الإثني والاجتماعي حلم سكّان "الربط" لفترات طويلة من تاريخ محاولاتها اختراق الحاجز الرمزي والثقافي، لا المادي، الموطّن من أجل إعادة إنتاج التعالي المجتمعي والثقافي لأقدم سكّان منطقة " الحفصية " الداخل / داخل السور.

يميل أقدم "**بَلْدِيَةْ**" الحفصية اليوم والجيل الثاني الذي ورث مسكنه أو انتقل إليه منذ أكثر من جيل كامل (ما بين 25 و50 سنة) إلى إخضاع الدار لمراجعة شاملة، إلاّ أنّ أغلب تدخّلها يتّجه إلى تحويل الحديث إلى تقليدي والتقليدي إلى حديث. يشمل الاتجاه الأوّل البعد المعماري ويتّصل بالفاصل أو الحاجز المادي بين الداخل والخارج من فضائها أي ما يصنع جسرا أو حاجز تواصليا بين الداخل/ الخاص والفضاء العام المشترك للدار (النهج). أمّا الاتجاه الثاني الذي يحوّل التقليدي من الدار إلى حديث فيتّصل بالمحور الفضائي الذي تتشكّل بالنظر إليه وحوله الدار التقليدية أي وسط الدار الفارغ حيث تحوّله إلى

فضاء مغلق ليصبح غرفة المنزل. يمسّ هذا السلوك جوهر الفضاء التقليدي وظاهره عبر جعل واجهة الدار سورا يتجاوز مدى إدراك الآخر لمضمون ما يقع خلفه إذا إتّصل وجودها بمسكن يحمل هذه المعمارية المتمثّلة في فضاء فارغ أماميّ. لكن على خلاف ذوي الأصول الريفية من اقدم شاغلي "الحفصية" لا تنزع إلى تدخّل كلّي في الفاصل المادّي الذي هو السور الأمامي للدار الذي يتّجه إلى تعليته ولا إلى تقصيره إذا وجدته عاليا بطبيعته. وتحافظ في جانب آخر على تقليدية الباب.

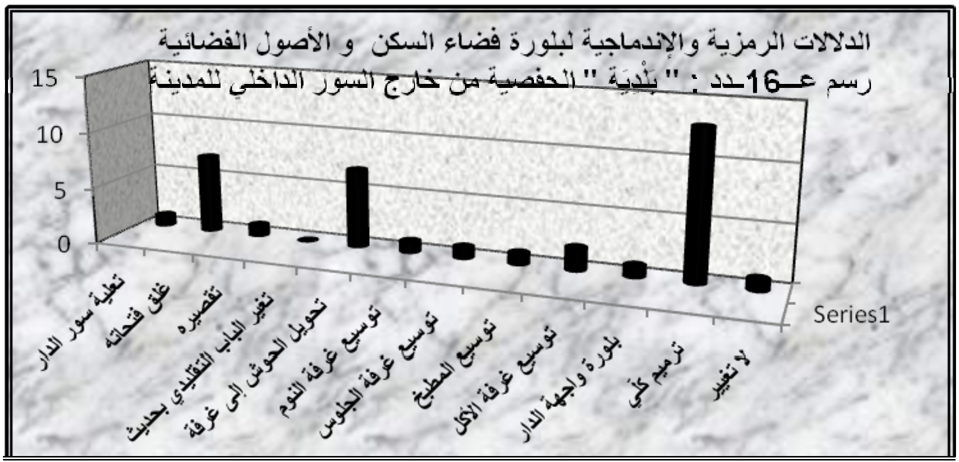

ينجلي، مع ذوي الأصول الحضرية أي الوافدين على الحفصية من المدينة التقليدية، التداخل بوضوح بين التقليدي والحديث، حيث تكشف نتائج البحث عن نزعة تحديث باب الدار من ناحية واحتفاظ كلّ عيّنة البحث بالمورفولوجيا التقليدية للداخل أي على وسط الدار. يكشف هؤلاء عن استخدام متعدّد الوظائف لذات الفضاء أي بيت الجلوس كفضاء إستقبال واجتماع/ فضاء للأكل والاجتماع والنقاش والنوم/ فضاء يغلق حالما ينتهي استخدامه لكنّه مشغول دائما، في الإستعمال اليومي لكلّ الأصول الفضائية لشاغليها ويتّخذ وظيفة ليحيل إلى أخرى.

هناك سلّم أولوية أو تدرّج لمدى اختراق داخل الدار. فالزائر المناسباتي وأصدقاء الأبناء مثلا يستقبلون في هذا الفضاء في حين يدعى الأهلي إلى "بِيتْ القْعَادْ ":الفضاء اليومي للجلوس والراحة والأكل وأحيانا النوم. فضاء تتغيّر فيه هيئة الجسد من الجلوس إلى التمدّد أو التربّع حول مائدة. أن يدعى الزائر إلى هذا اليومي هو تعبير عن عمق العلاقة التي تربط أهل الدار والزائر وهو نوع من مظهرة الودّ والصداقة عبر السماح له بالاطلاع على الأكثر يومية في ممارستها الجسدية والفضائية. إنّنا أمام ازدواجية أخرى تحيل إلى الممارسة وتنضاف إلى ازدواجيات أو ثنائيات تمظهر إتّجاه تكييف الفضاء: ظاهره والمخفيّ منه، خارجه وداخله، فارغة ومبنية ليستجيب لتواصلها مع ماضيها وذاكرتها التي تصنع الاستمرارية مع التقليدي من ناحية والمعطى أو الموجّه إلى الآخر.

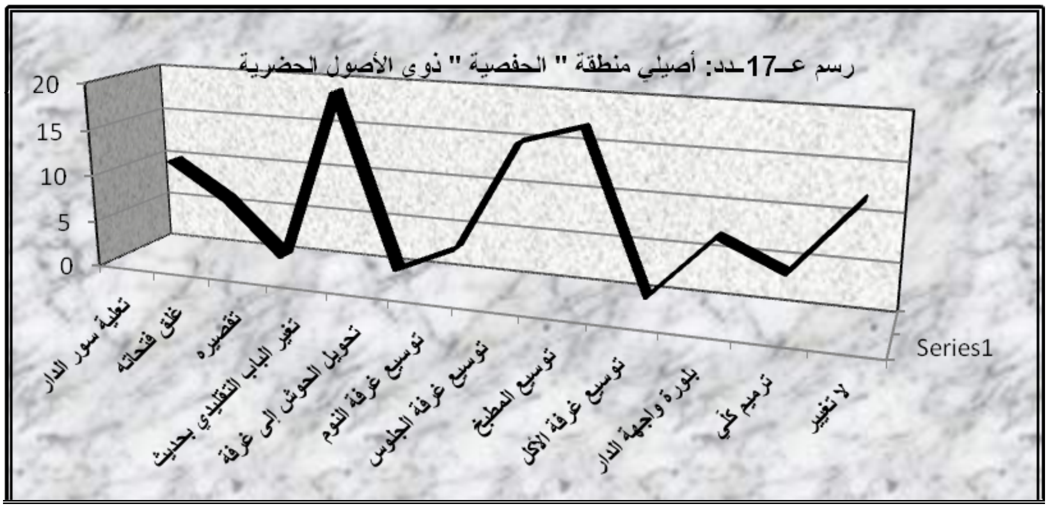

فكما يبدو من هذه النتائج فإنّ الجديد لا يصنع القطيعة مع الماضي كما يتجلّى في الممارسة بإعتبار أنّه لا يغزو من الداخل إلاّ بدايته أي فضاء استقال الآخر. فلا يجوز الحديث عن تغيير في ظلّ هذه الاستمرارية الغالبة لأشكال شغل وتوظيف الداخل وحركة وانتقال الجسد ضمنه وبينه التي تحيل إلى نموذج الحياة التقليدية: الريفية أو" **البَلْدِيَة** "[12] التقليدية. وإذا كان من الممكن الحديث عن تغيير فإنّ أقرب " **البَلْدِيَة** " إلى ذلك هم " **البَلْدِيَة** " الجدد التي تكشف عن ميل لمعادلة التقليدي والحديث في التمثّل والممارسة في إتّجاه الحديث والمتجلّي بصفة أوضح لدى أعلى " **بَلْدِيَة** " الحفصية دخلا أسريّا.

لقد شكّل هذا الفعل في المعمار والمظهر الجمالي للمدينة المستجيب لمعايير لا مادية بل ثقافية تحوّله إلى فعل رمزي يحيل إلى صورة الفاعلين لذواتهم ولفضائهم الخاص والمديني وللصورة التي يسعون لتمريرها للآخر عبر الفضاء إحدى أبعاد التشريعات المسنّة لمحاولة الإحاطة بهذا التحضّر العفوي وحصر آثاره السلبية على التجانس المعماري والجمالي للمدينة التاريخية. من ذلك إصدار المجلة الجديدة للتهيئة الترابية والتعمير وقبل ذلك إحداث هيكل تنسيقي بين مختلف المتدخّلين في المشاريع التنموية الحضرية والعمل على تحقيق وتجسيد إستراتيجية التنمية الحضرية المدفوعة من قبل السياسة الحضرية. يتمثّل هذا الهيكل في وكالة التهذيب والتجديد العمراني(1981م) التي أشرفت على مشروع الحفصية(1981 – 1993 م) كمنسّقة بين بلدية تونس صاحبة المشروع وبنك الإسكان المتصرّف في الحساب الخاص بعملية التهذيب وجمعية صيانة المدينة كمكتب دراسات ووضع التصاميم لهذا المشروع وأيضا مشروع 1973م والمتدخّلين التقليديين [13].لا يشكّل الإطار التشريعي لإستراتيجية التنمية الحضرية للأحياء القديمة سواء المتعلّق بتنظيم مختلف المشاريع الإعمارية أو التهذيبية أو التجديدية للنسيج العمراني للمدينة التقليدية أو بسلوك الفاعلين تجاه معمارية المسكن حلاّ لما تعرفه المدينة التاريخية والحفصية كجزء منها، من ظواهر اللا تجانس المعماري والجمالي الذي مثّل إحدى أهداف مشروعي 1973م و1981م. ويهدف تهذيب وتجديد النسيج العمراني للأحياء القديمة نحو مشروع إعماري وتمديني، إلى التوحيد الذي فقد تدريجيّا واقعه بفعل الإستعمال الذي يحيل إلى البعد الثقافي للتنمية الحضرية الذي يرسم آثاره على الواقع أي الحاصل المديني ولكنّه لا يسجّل حضوره في التخطيط واستراتيجيات التنمية الحضرية.

5– تمثّل الخاص لدى "بَلْدِيَة" الحفصية

تتمثّل أقدم " **بَلْدِيَة** " الحفصية فضائها الخاص اليوم كعالمها أو كونها الخاص بنفس التساوي مع كونه ذاكرة حيّة. فهي لا تتعاط فضائها الخاص كمجرّد فضاء للسكن بل تتواصل معه ككون مشحون بالذكريات والتواريخ والأحداث والمعالم المتحفية: القدسية والوجدانية، تتعلّق بها ماديّا ولكن أيضا عاطفيّا ووجدانيّا. **هنا في هذا المكان يستحضر أوّل قدومه إلى الحفصية** وعبره يمرّ ويستحضر **تاريخ العام من فضاء المنطقة**. وهنا، أي الدار، **يحي الحاضر في تواصل رمزي وثقافي مع الماضي** الذي لا يعيش في الذاكرة أو ذكريات الذي كان من ماضي.

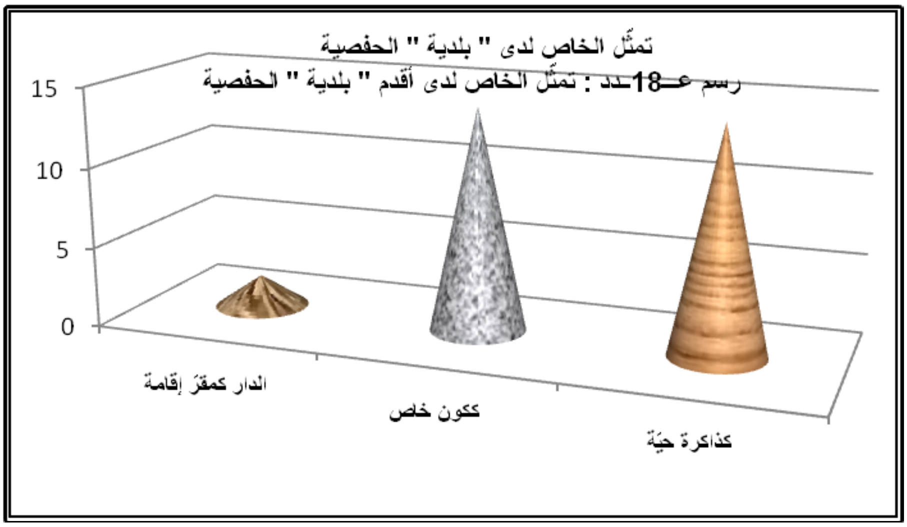

رسم عــ18ــدد : تمثّل الخاص لدى أقدم " بلدية " الحفصية

الفضاء المعاش بل **هو حاضر في كل حين وآن عبر أشيائه ومعالمه وأشكاله وألوانه** التي تميّز هذا الداخل / الخاص **ككون خاص وذاكرة** تتجسّد في كل ركن من الدار **وحتى في أشيائه المهملة** وغير المستعملة.

يعتبر الجيل الثاني من "**بَلْدِيَة**" الحفصية الدار كفضاء للسكن والإقامة بدرجة أولى ولكنّه بصفة أقلّ عالم خاص. فالفضاء الخاص لا يبدو لهم ذاكرة حيّة لذلك يفهم هنا لما تتمثّل أو تريد أن تروّج لتمثّل يصعد بها إلى ماض هي لا تنفصل عنه كليّا ولكنّها ترغب في أن ينظر لها على أنّها لا تطابق كليّا آباؤها أي الجيل الأوّل بل تختلف معها. هذه الصورة التي تريد أن يتواصل معها الآخرون عبرها تتجلّى رمزيّا في بلورتها لفضائها الخاص كما سبق ذكره. فهي تتّجه بالواجهة أي الظاهر من الفضاء الخاص إتّجاها تحديثيّا يتداخل ضمنه التقليدي والحديث، في حين أنّ بلورة فضائها الداخلي أو الخاص جدّا يغلب ضمنه التقليدي على الحديث. يكشف ذلك عن خطأ الارتباط الذي يوجده البعض بين تمثّل الفضاء والألفة بهذا الفضاء. فرغم أنّها تشغل وتستعمل فضائها منذ أكثر من جيل وما يقارب الجيلين فإنّها لا تتمثّل فضائها كذاكرة حيّة.

يتّسم تمثّلها ببعدين:مادي وواقعي. وما يؤكد صحّة هذه الفرضية هو أنّ الجيل الثالث أي من يقدّمون أنفسهم " **كبَلْدِيَة** " جدد لا يصل زمن شغلها لفضائها نصف ألفة الجيل الثاني بفضائه اليوم لكنّه يعتبر داره أو مسكنه ذاكرة حيّة بنفس الدرجة مع كونه مأوى أو مكان إقامة لا غير.

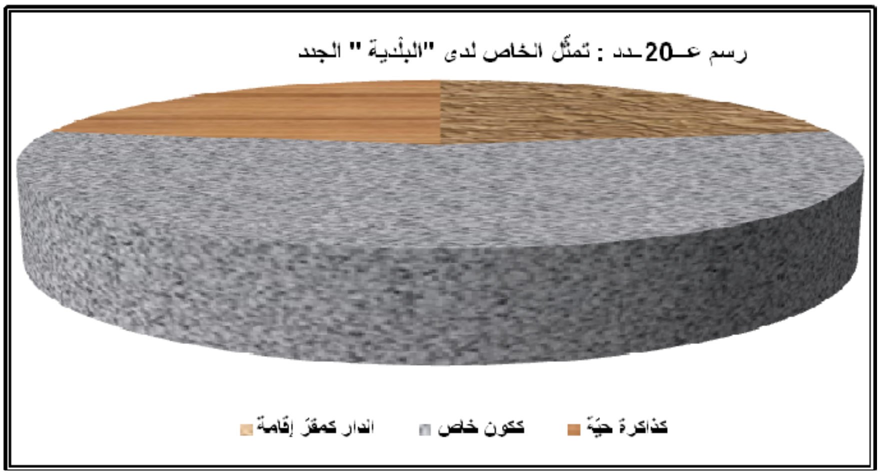

يفضي هذا المعطى إلى رفض إعتبار مقولة الألفة قادرة على صياغة تفسير لتمثّل الذات لفضائها اليومي والخاص، مأخوذة بمفردها في التحليل، ذلك أنّ العوامل التفسيريّة تتداخل بالتأكيد في مقاربتنا لفهم وتعقّل الظاهرة المدينية. فلو عدنا إلى مبحث الدلالات الرمزية والاندماجية لفعل بلورة السكن في ظاهره وباطنه، خارجه وداخله، معماره ومورفولوجيته، نفهم لماذا يقدّم "**البَلْدِيَة**" الجدد حتّى للباحث ذاته أي الغريب عن المنطقة، على أنّ ما يربطهم بالحفصية أو بموقعهم منها هو **رابط تاريخيّ ووجداني**. يعني ذلك أنّها تتعمّد تقديم نفسها كفئة لها تاريخها الذي هو جزء من تاريخ المكان أي بحثا عن شرعنة وجودها واندماجها بالمكان الذي قناته الفضاء الخاص[14] (Zanned,1995,B) أي المسكن. هذا الجسر التواصلي بين شاغله وذاكرته وأحلامه وأهدافه وبينه وبين فضائه المحيط يصبح معه استناد التحليل لهذه الوحدة الفضائية كحقل ثقافي ورمزي مطلبا لمقاربة فعل الذوات الإجتماعية في فضائها وآثار ذلك على النسيج العمراني والبنية المعمارية والجمالية للفضاء المديني، لكن أن تكون الدار في ذات الوقت ذاكرة حيّة وفضاء إقامة لا يعني أنها تشكّل نواة تمثّلها. فأغلب عيّنة " **البَلْدِيَة** " الجدد يقدّمون الدار كعالمهم الخاص أكثر منه ذاكرة حيّة.

يلتقي أقدم " **بَلْدِيَة** " الحفصية اليوم مع " **البَلْدِيَة** " الجدد في منطق المعادلة بين تصوّرين للدار. إلاّ أنّ أقدم " **البَلْدِيَة** " يتمثّلون الدار أو المنزل كعالم خاص وذاكرة حيّة في الآن ذاته أي كماض وحاضر وبالتالي لا ينفصل، في تصوّرها التاريخي والآني: الذاكرة والمعاش. أمّا الجدد فيتمثّلون فضائهم الخاص كمكان إقامة وذاكرة حيّة في نفس الوقت لكن مع غلبة كونه نهاية عالمها الخاص.

يغيب منطق المعادلات بالنظر إلى متغيّر الجنس، حيث أن الذكور مثلما الإناث من مختلف المستويات المادية والأجيال والمستويات الثقافية تكشف، على العكس، عن نزعة الترتيب التفاضلي.

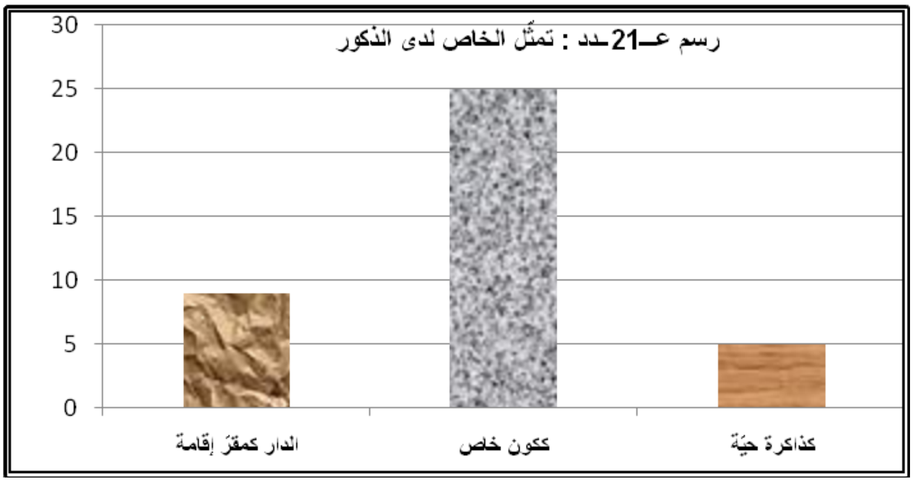

فإذا كان يتنزّل كون الدار مجرّد فضاء سكن، في أسفل ترتيب الأولويات الذي تضعه الذكور، فإنّ الإناث يتمثّلن الفضاء الخاص الذي يشغلونه كمكان إقامة وبدرجة أقلّ كونها فضاء خاص. ثم إنّ حضور الفضاء الخاص في تصوّرها كذاكرة حيّة ومتحف تاريخ الجماعة المرجع أو جماعة الانتماء، ليس غائبا ولا ضعيفا ولكن يتموقع في أسفل ترتيبها التفاضلي.

ما معنى أن يكون هذا الخاص لدى الإناث، خلافا للذكور، فاقدا لبعده الدلالي وملتصق بمعناه المادّي أو الوظيفي العملي، عكس المفترض. لا شكّ أنّ لهذه البراغماتية دلالات اجتماعية. فيمكن أن يشكّل تراجع العلاقة التقليدية اليومية بين الأنثى والدار والتي تصل إلى نظرة المجتمع إليها والأدوار التي يسندها لها، بفعل تعلّم المرأة أو الأنثى وخروجها للعمل – المساواة التعليمية/ الاختلاط المجتمعي، عاملا مفسّرا لهذا التمثّل الأنثوي بين الفضائي والاجتماعي.فالدار لدبهن مقر إقامة ينفصل بهذا المعنى عن كونه امتداد للخارجي: العام والمشترك أو تواصل رمزي له بإعتبار انه لا يشكّل لديهن ذاكرة فضائية حيّة تعيد إنتاج العلاقة الحميمية أو الرمزية والوجدانية بالمكان الذي هو المشترك.

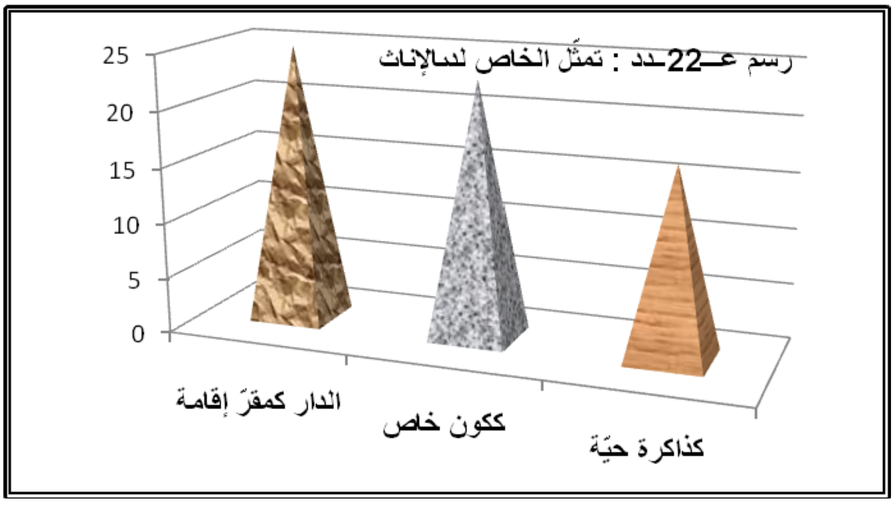

إلاّ أنّ توقّف المقاربة السوسيولوجية عند هذا المنحى الماكرو سوسيولوجي في التحليل هو إقصاء للذات الإجتماعية بإعتبارها لا عونا للمنظومة المجتمعية بل فاعلا يحيل فعله الإستراتيجي إلى تحديدية Déterminisme تجد مرجعيتها في اجتماعية الفعل Socialité de L’acte بمنطق المدرسة النظامية ولكن أيضا إلى أفكار وأهداف وأحلام الذات التي تمارس توجيها قيمي ومعياري لفعلها في الفضاء.

هذا البعد التحليلي هو الذي يواجه التحليل السوسيولوجي مع البعد اللا شكلي والعفوي في التحضّر الذي تمظهر المدن المغاربية اليوم وخاصّة التاريخية آثاره على الفضاء بأبعاده العمرانية وما تطرحه من مشكلات التمدّن السريع والكثافة السكّانية وعدم تجانس النسيج العمراني مثلما معمارية أو البنية

المعمارية للمدينة التي تحيل إلى هذا البعد الفاعل الذي هو العفوي، المفضي إلى المستعمل والاستعمال بكلّ دلالاته ومرجعياته الثقافية والرمزية وانعكاساته على المظهر الجمالي للمدينة المشكّل لأحد أبعاد الفعل في الفضاء.

يتّفق تمثّل الذكور لفضائهم الخاص والترتيب التفاضلي الذي تقيمه مع تمثّل ذوي الأصول الحضرية أي تمثّل الدار أو الفضاء الخاص ككون ذاتي لشاغله أكثر منه ذاكرة حيّة وكذاكرة حيّة أي تاريخ أكثر منه فضاء احتواء سكني أو إقامة Résidence. فآخر ما تفكّر فيه هو اعتبار مادية المكان أو نفعيته. إنّ أكثر الفاعلين تعاطي لفضائهم الخاص كذاكرة حيّة أي ضمن ما تقترحه ماديّا كتواصل هو رمزيّ مع ذاكرة الجماعة للفضاء وتاريخها، هم من ذوي الأصول الريفية. فهؤلاء لا يزالون يتمثّلون الدار كفضاء تواصل مع الذات وبالتالي مع كلّ ما يوصلها مع ماضيها ومع تاريخها من أشياء وممارسات لهذا الداخل أو الخاص وفي علاقة بامتداده الفضائي. فالريفي يتعامل مع الامتداد الخارجي (الأمامي) للدار كجزء من الخاص رغم أنّها لا توظّفها لكنّها ترفض أن يشغله الآخر. ففي ذلك تضييق لحريّتها حتّى وإن كان هذا الاستعمال لا يفضي بأي شكل من الأشكال إلى اقتحام الداخل/ الحرمة أو الممنوع للمكان.حرمة المكان جزء من ثقافتها ينعكس في صورة الفضاء وتوزيعه إلى داخل وخارج/خاص وعام لا يعيد إنتاج الفواصل الماديّة للمكان. فالفواصل أو الحواجز هي رمزية لكونها تفضي بنا إلى القيم والمعايير وإلى التمثّلات والدلالات التواصلية أكثر منه المادية أو الجمالية لذاتها. يؤكّد هذا التجانس بين الدلالات الرمزية والاندماجية لبلورة الفضاء الخاص لدى كلّ الفئات المبنية نظريا بالنظر إلى متغيّرات المستوى المادي والأصول الفضائية وأقدمية التواجد ومتغيّر الجنس من ناحية والتمثّل أو التصوّر للفضاء الخاص من ناحية أخرى، صحّة الفرضية التي انطلقنا منها في هذا البعد التحليلي لعلاقة الفاعل بفضائه الخاص والعام، المبني والفارغ، الظاهر والمخفيّ.

يشكّل هذا التوافق بين التمثّل والاستعمال (بعدي العلاقة بين الفاعل وفضائه الخاص هنا) مادّة اختبار تؤكّد صحّة فرضية أنّ استعمال الذوات الإجتماعية لفضائها الخاص يتجاوز مظهره المادي ليحيل رمزيّا إلى تمثّل وتصوّرات الفاعلين لفضائهم ولذواتهم على أنّ فعلها في فضائهم يحيل إلى التمثّل ولكن أيضا إلى أهداف وغايات الفاعلين من فعلهم هذا ومن تواجدهم ضمن الحيّ.

6- الانفتاح الحذر والانغلاق المرن: إستراتيجية إندماج وتواصل

إنّ تاريخ وتقاليد الجماعة كما يقول " **لاباس** " La basse التي هي تاريخ " وتقاليد المدينة"[15] (La basse,1971) تتعيّن في الجمالي مثلما تؤثّر على السلوك المديني وتفسّر أشكال التواصل مع الفضاء الخاص الذي هو الدار. يستدعي هذا التواصل، في اللحظة، تاريخ الذات مثلما تاريخ المكان [16] (Zanned,1994). هو تواصل مع الذات يتمظهر ماديّا وجماليا وبالتالي رمزيّا في ما أسميناه بالواجهة أي الوجه أي المعطى للآخر أو هو مشهد يصيغه شاغل الدار بالنظر إلى مخزونه أو الإيتوس Ethos أي روح الجماعة أو روح ثقافة الجماعة[17] **(حجازي، زكي بدري،1974م)**. هذا ما أثرناه في الفقرات السابقة بالنظر إلى جملة من المتغيّرات. لكن ما نستدعيه هنا هو تساؤل إشكالي سبق طرحه نظريا وفيما يتّصل بإشكالية العلاقة بين الفضاء المديني وشاغليه يتعلّق بالجانب العقلاني في السلوك الفضائي للفاعلين الاجتماعيين. على أنّ القصد من عقلانية الفعل في الفضاء هو البعد القصدي للتدخّل في معمارية الدار: في أشكال الزخرفة الفنيّة التقليدية للدار التي تقع في الأحياء القديمة منطقة الحفصية أو الحديثة في المساكن المشيّدة منذ 1973م إلى اليوم مثلما في مورفولوجيته.

هناك تداخل بين التواصل مع ماض تختزنه الذاكرة في الفضاء والتواصل مع الآخرين عبر هذا الجزء من الدار أي الواجهة [18] (Halbwachs, 1950). ويتغاير هذا التداخل ويتّخذ أشكالا متعدّدة بين أجيال "بلدية" الحفصية وبين فئاتها الإجتماعية وحتّى بالنظر إلى نمط الفضاء الذي يشغله من الحيّ. السؤال الذي يطرح نفسه إذا هو ما الذي يفسّر هذا التغاير في أشكال التمفصل بين الداخل والخارج؟ تنزع الفئة الأكثر حظّا من "بَلْدِيَةْ " الأحياء القديمة للحفصية على غرار الجيل الثاني خاصّة، كما أسلفنا، إلى إعادة إنتاج التقليدي والتاريخي الذي يشكّل هوية المكان والذات في انفتاح على الأشكال الفنيّة والجمالية لزخرفة الوجه الخارجي للدار. وعند اختيار عاملية متغيّر الألفة بالفضاء أي أقدمية التواجد بالعبارة المستعملة وقفنا على التراجع الحديث لفائدة التقليدي مع كلّ صعود في سلّم أقدمية التواجد بالحفصية. قد يبدو ذلك بديهيّا، إلاّ أنّ أي نتيجة هي دالّة حتّى وإن اتفقت مع المعلوم أو المشترك أو المتداول فهمه. وما يبدو بديهيا الآن قد تحوّل إلى عكسه وبالتالي هذا التوافق الممكن بين المعلوم والحاصل التحليلي يبقى، إن وجد ظرفيّا، غير مقلّل من أهمية النتيجة التي يبثّها مبحث تمثّل الذوات الإجتماعية لفضائها الخاص الذي تشغله. فالجيل الثاني "لبَلْدِيَةْ" الحفصية يتمثّل الدار كمأوى بدرجة أولى أي خارج شحنته الرمزية ثمّ بدرجة ثانية كعالم خاص أكثر منها ذاكرة حيّة. وإذا ما قرنّا هذا الاستنتاج بنزعة الجيل الثاني لتحديث الواجهة في إتّجاه يحتفظ بصلة ما

بالتقليدي التي تتجسّد مثلا عبر تحديث الباب التقليدي مع الاحتفاظ بالطابع الحاجزي البصري أو العازل لسور الدار أو واجهتها، نقف على ملاحظة هامّة جدّا تتّصل بما أسميناه بالانفتاح الحذر أو الانغلاق المرن كسلوك إستراتيجي تواصلي مع الفضاء العام عبر الفضاء الخاص.

توظّف، هذه الفئة كما أسلفنا، واجهة الدار أي الظاهر من "خاصتّها" في إتّجاه يمظهر إستراتيجية اندماجها في فضائها العام/المشترك. فهي لا ترغب أن تقدّم صورة عن كونها امتداد للسلف أو شاهدة على ماضي المكان لكنّها في المقابل لا تريد أن تنفصل أو هي لا تنفصل أصلا عنه. إنّنا أمام فعل قصدي موجّه للسلوك الفضائي لهذه الفئة نحو رسم شخصيتها المدينية كما تتصوّرها وتطمح إلى الإيحاء بها فضائيّا للآخرين الذين تتفاعل وتتواصل معهم. يتجسّد هذا الفعل العقلاني الذي هو فعل إستراتيجي[19] (Hogue, 1988)، رمزيّا بما أنّه يتّخذ من واجهة الدار أي الفضاء المادّي لغة تعبّر بها عن تصوّرها لذاتها وللفضاء العام/ المشترك (الحي، الحومة، النهج، الزقاق...). يوجد ميشال بانسون Pinçon صلة بين المسكن وأنماط الحياة. ويعتبر أنّ الفرد يدّل عبر الممارسة رمزّيا عن انتمائه للجماعة وفي ذات الوقت "يوجد عينيّا هذه الجماعة"[20] (Revue Française de Sociologie, oct/ déc,1981)، لكن لا نقول، هنا، أنّ الفرد يدلّ عبر الممارسة رمزيّا عن انتمائه للجماعة كما يتصوّره أو كما يريده. ينقلنا هذا التعبير من العلاقة التحديدية التي تجعل من الفضاء انعكاسا لهذا الانتماء إلى علاقة جدلية يتداخل ضمنها الإيتوس الموجّه للفعل الإجتماعي للأفراد وجانب الحرية والعقلانية الفردية التي تجعل من الفضاء لا مجرّد قناة تواصل مع الأنا الجمعي Moi Collective أو مع الآخرين بل ترجمة لهذه الإستراتيجية الاندماجية ضمن الفضاء المديني.

تظهر هذه الإستراتيجية الاندماجية تداخل التقليدي والمعاصر،الأصالة والتجديد،المحافظة والتحرّر،هي تصوّر يتجسّد في واجهة الدار للصورة الإجتماعية التي توحيها أو ترمز لها الدار في معماريتها ونمطها المدخل عليه هذه المراجعة من ناحية وصورته لذاته بالماضي والحاضر. فالإنسان لا يتصرّف" كاقتصادي سليم التفكير من غير احتياجات وعواطف ورغبات"[21] (مهدي الشويحات، 1993،أ)، حسب ألونزو، بل يستجيب فعله كما يقول فيراي Firey لمطالب ثقافية "تفرضها قيم ومعايير ومفاهيم"[22] (مهدي الشويحات، 1993، ب) شاغلي الفضاء الحضري. إلاّ أنّه يتصرّف، من وجهة تفكيرنا، بالنظر إلى أهداف تجعل من فعله في الفضاء (الخاص والعام) فعلا ثقافيّا واجتماعيا وعقلانيّا يتداخل ضمنه الجماعي والفردي، الواعي واللا واعي، المادي والثقافي.

تصنع هذه الإستراتيجية الاندماجية للجيل الثاني "لبلدية" الحفصية التي أسميناها بالانفتاح الحذر والانغلاق المرن، مقياسا لإستراتيجيات الفئات الأخرى، حيث تبيّن ممّا سلف أنّ الفئات المشكّلة بالنظر لمتغيّرات البحث، تتغاير إستراتيجيات اندماجها في فضائها المديني التقليدي أو الجديد بالنظر إلى نمط التمفصل الذي توجده بين الانفتاح والانغلاق (الجسر والباب لدى زيمل Simmel) أي التجذّر في الهوية التاريخية للفضاء التقليدي للحفصية أو مدى ودرجة الابتعاد عنها والأخذ بالحديث. فإذا استحضرنا "البلدية" الجدد نجد أنّهم لا يحتفظون بذات التمفصل ولكن لا تختلف معه نوعيّا، فهم يتّجهون إلى تغليب جانب الحديث على التقليدي في مستوى الواجهة أي المعطى للآخر مثلما الداخل أي المعطى للذات. فالتقليدي يسجّل حضوره،إذا، على صعيدي الخارج والداخل من فضائهم الخاص وعلى مستوى المعماري والجمالي مثلما المورفولوجي والممارسة، لكن ذلك يتغاير أي يقلّ أو يتكثّف بالنظر إلى متغيّرات المستوى المادي والأصول الفضائية ونوعية الفضاء العام الذي تتموقع ضمنه داخل الحفصية (جديد أو تقليدي). ف"**البَلْدِيَة**" الجدد من الفئات الأكثر حظّا ماديّا وشاغلي الأحياء الجديدة هم أكثر ميلا إلى التماثل مع العام والمشترك، بمعنى أنّهم أقلّ نزعة إلى مراجعة وتعديل واجهة الدار. تتكثّف هذه النزعة إذا انتقلنا إلى الأحياء القديمة حيث نجد خليطا لا متجانسا معماريا وجماليّا (أشكال الزخرفة الفنية لواجهة الدار أو الشقّة مثلا) لا على صعيد الحيّ فحسب بل أحيانا كثيرة على مستوى المنزل أو المسكن الواحد. فلا يجب أن نقرأ ذلك على أنّه تعيين مادي للذوق أو تجسّد فضائي لمتعدّد الأذواق حتّى وإن كان من الصواب الوصل بينها إلاّ أنّ ذلك لا يشكّل تفسيرا للظاهرة. فالسوسيولوجيا الحضرية مدعوّة كما أسلفنا إلى قراءة تأويلية لسلوك الفاعل لتعقّل المعنى الذي يعطيه لفعله والهدف الذي يوجّه فعله في فضائه الذي هو فعل في ذاته.

فالتمثّل والقيم والمعايير الجماعية المستبطنة والموجّه لسلوك الأفراد الإجتماعي تتجسّد في استعمالاتهم وكيفيات شغله. لكن واجهة الدار هنا هما لوحة أو مشهد يتداخل ضمنها الجماعي والفردي، الثقافي والمادي، الواعي واللا واعي والتوجيه القيمي للفعل والتوجيه العقلاني. يحيل التوجيه العقلاني إلى جانب القصد في الفعل وبالتالي إستراتيجية الاندماج ضمن الفضاء المديني. فالصورة التي تبثّها واجهة الفضاء التي هي نتاج فعل المراجعة أو التعديل أو حتّى عدم الفعل، هي ما يريد أن يبثّه شاغل الفضاء الحالي إلى الآخرين

أي ما يجسّد الجانب العقلاني في كيفية شغله لفضائه.

تتعمّق قناعاتنا بضعف التناول الأحادي أو التفسير المستند لمتغيّر وحيد في تعقّل وفهم الظواهر الحضرية. فمتغيّرات البحث تتداخل كعوامل موجّهة ومفسّرة لسلوك الفاعلين المدينيين إنطلاقا من توظيفها المتغاير لفضائها الخاص/ الداخل ومورفولوجيته. هذا الخاص، إذا، هو محو ر العلاقة بين الذات وذاكرتها وبينها وفضائها الإجتماعي هو جسر بالمعنى الزيملي وباب أي الارتباط والانفصال، الانفتاح والانغلاق. يتّخذ تمفصل العلاقة أشكالا تحيل إلى جماعات معيّنة. فلكلّ جماعة اجتماعية موقعها ووضعيتها التي تتصرّف بالنظر إليها. ويحيل تصرّفها هذا الذي يقرأ عبر معاشها الفضائي اليومي إلى تمثّلاتها وتصوّراتها وذاكرة الفضاء الخصوصية مثلما إلى آمالها وطموحاتها التي تتحدّد كأهداف تصيغ الذوات الإجتماعية إستراتيجيات متعدّدة. يشكّل استعمالها لفضائها الخاص وفعلها في الخارجي منه أي واجهته بمتعدّد مستوياته وحدة التأويل لفهم وتعقّل هذا التوجيه العقلاني لفعلها في فضائها.

الهوامش

(1) المدينة القديمة التونسية أسسها العرب المسلمون في القرن الثامن للميلاد، وكان موقعها فوق ربوة على المتوسط يؤهلها كي ترث جارتها قرطاج العاصمة الفينيقية. هكذا تحولت تونس القرية البربرية في العهود القديمة، ثم القلعة الدفاعية الحصينة في العهود العربية وحكم الاغالبة، الى مركز امارة محلية، دام حكمها زهاء قرن من الزمن. وقد ضم الموحدون تونس عام 1160م الى دولتهم الكبيرة المستقرة بمراكش والممتدة من المغرب الاقصى الى طرابلس الغرب، فجعلوا منها عاصمة ولاية افريقيا. واخيرا تحولت الى حاضرة الدولة الحفصية 1229 – 1574م فكانت مع صقلية يفصلهما مضيق عرضه 140 كلم تتحكمان بالعبور بين غرب البحر الابيض المتوسط وشرقه. والحفصية او الحارة او الخربة هي احدى احياء المدينة التقليدية والتي اشتهرت بتنوع نسيجها العمراني وبنيتها الاثنية حيث تم اسكان اليهود بتشجيع من الولي الصالح محرز بن خلف. وقد خضعت هده المنطقة الى مشاريع ترميمية لنسيجها العمراني ومورفولوجيتها التقليدية والى مشاريع توسعة عبر ازالة البناءات المهترئة واعادة بنائها وفق الطراز المعماري المميز للحارة.

(2) Bouchrara Zanned T. Tunis une ville et son double, MTE, 1995, p 13.

(3) Maffesoli, M., La conquête de présent, Paris puf, 1979, p74.

(4) Bouchrara Zanned T. symboliques corporelles et Espaces Musulmans, Cérès prod, 1984, p 11.

(5) هذه الجغرافيا يمكن تسميتها، مع طابعها الروتيني، بالجغرافيا اليومية لكن لا يمكن استعارة عبارة الجغرافيا الإرادية لجون لاباس jean Lapasse على اعتبار أن عناصر الجغرافيا اليومية لا تحيل دائما إلى الإرادي.

(6) يقصد ببَلْدِيَةْ اقدم سكّان مدينة الحفصية كمدينة عربية اسلامية تقع داخل الأسوار المحيطة بها وحيث يسمى من تم رفض اندماجهم ضمن فضاء المدينة " بالبراينية " الذين كوّنوا احياء خارج الأسوار. اما ما يتصل بتصنيف الجيل الأول هم متساكني المنطقة لأكثر من 50 سنة ونقصد بالجيل الثاني ساكني المنطقة بين 25 و49 سنة وبالجيل الجديد او الثالث شاغلي فضائهم الحالي بالمنطقة لأقل من 25 سنة.

(7) إنّه تواصل رمزي يتّخذ من الواجهة مادة لصياغة دلالات عن الذات أو صورة حقيقية عن نمط حياته ضمن الداخل أو تكون بالضرورة ترجمة فعلية له. تتخذ إذا بعدا تضليليّا له دلالات اندماجية. فالصورة التي تعكسها الواجهة عن شاغل الفضاء الخاص هي ما يريد ويقصد تمريرها إلى الآخرين عن نفسه. هذا السلوك نلاحظه لدى الجدد مثلما الجيل الثاني من اصيلي المنطقة كما سيتّضح ذلك فيما بعد.

(8) وهم شاغلي فضاءاتهم منذ ما يقارب 25سنة {فئة عمرية ما بين 12 و25 سنة}.

(9) يقصد بالبلورة احداث تغيرات في الفضاء الخاص الذي هو المسكن، سواء على مستوى مورفولوجية الدار او على صعيد الواجهة الأمامية او على المستوى الفني والجمالي.

(10) chevalier D., L'espace social de la ville arabe, paris, Maisonneuve et la rose, 1979, p 107.

(11) والمقصود بالبراينية هم سكان المنطقة الجدد القادمين اما مباشرة من فضاءات حضرية او ريفية اخرى او الذين استوطنوا خارج اسوار المدينة العتيقة قبل الولوج الى منطقة الحفصية بعد المشاريع التحديثية والتوسعية التي عرفتها المنطقة منذ 1931م.

(12) "البَلْدِيَة" هي تسمية شعبية تطلق على اصيلي سكان الفضاء المديني والأقدم تواجدا.وقد عبرنا عنها في مواقع اخرى بأصيلي منطقة الحفصية اي الأقدم تواجدا بالمنطقة والذين يتخذون تسمية " البَلْدِيَة " في مقابل الوافدين الجدد او غير اصيلي المنطقة المعبّر عنهم " البراينية ".

(13) وزارة التجهيز والإسكان، التقرير الوطني لمؤتمر الأمم المتّحدة الثاني حول المستوطنات البشرية. تونس 1996م، ص69.

(14) Bouchrara Zanned T., Tunis une ville et son double,

MTE, 1995, p 62.

(15) La basse J., L'organisation de L'espace, éléments de géographie volontaire, paris éd Hermann, 1971, p284.

(16) Bouchrara Zanned T., La ville Mémoire, paris, éd méridiens Klinck sieck, 1994, p.74.

(17) حجازي عزّت، زكي بدري أحمد، معجم مصطلحات علم الاجتماع: المركز القومي للبحوث الإجتماعية والجنائية، القاهرة،1974، ص 60.

(18) Halbwachs M., La Mémoire collective, paris puf, 1950, p 50.

(19) Hogue j.p., op cit, p62.

(20) Revue Française de Sociologie,oct/déc,1981, XXII, N°4, Art, Michel Pinçon, L'habitat et Modes de vie, .p 50

(21) مهدي الشويحات، حبيب، ندوة المدن الجديدة، منظمة المدن العربية، المعهد العربي لإتّحاد المدن، 1993، المجلّد الأوّل، ص 165.

(22) نفس المرجع، ص 165.

المصادر والمراجع

بينوس بن بشر الجلولي ف.، عبد الفتاح، ج.، تونس، طبع دار الجنوب للنشر، 1985م.

حجازي عزّت، زكي بدري أحمد، 1974م، معجم مصطلحات علم الاجتماع، المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية، القاهرة.

زبيس م.س. 1981م، مدينة تونس العتيقة، المعهد القومي للآثار والفنون، تونس.

محمد الحسن، حسّان، معجم علم الاجتماع، دينكن ميشيل، منشورات وزارة الثقافة والإعلام، الجمهورية العراقية.

ندوة المدن الجديدة، منظمة المدن العربية، المعهد العربي لإنماء المدن، المجلّد الأوّل، 1973م.

وزارة التجهيز والإسكان، 1996 م، التقرير الوطني لمؤتمر الأمم المتّحدة الثاني حول المستوطنات البشري، تونس.

Abdelkefi, Jallel, Ma Médina De Tunis, Espace Historique, Tunis Alif, 1989.

Aron, Raymond, La sociologie Allemande Contemporaine, paris puf, 1981.

Les Etapes de la Pensée sociologique, éd Gallimard, 1967.

Les Grandes Doctrines De La sociologie Historique, vol II, paris CDU, 1962,.

Aron, R., Boudon, R., Ansart, La sociologie, éd Larousse, 1978.

Association de sauvegarde de la médina, Réhabilitation de la Médina, projet pilote, Hafsia – Kherba, 1984.

Bouchrara Zanned, T.:

Symboliques Corporelles et espaces Musulmans, Cérès production,1984.

Tunis, une ville et son doubles, éd MTE, 1995.

La ville Mémoire, paris, éd Méridien Klinck sieck, 1994.

Essai D' Analyse socio – Morphologique, La Relation entre Les pratiques Corporelles Féminines et le cadre Urbain à Tunis, Thèse 3eme cycle.

Boudon, R., La Logique Du sociale, éd hachette Littérature, 1979.

Bousquet, G.M., Précis De sociologie D'après Vilfrédo Pareto, paris Payot, 1925.

Bruyne, P., Herman, J., schantheeté, M., Dynamique de la recherche en sciences sociales, paris puf, 1974.

Cayrol, J., De L'espace Humain, éd seuil, 1968.

Chevallier, D., L'espace sociale de la ville Arabe, Paris, éd Maisonneuve et Larose, 1979.

Collectif, La ville Arabe Dans L'islam, sous direction de Dominique Chevallier.

Cuvillier, Armand., Manuel de sociologie, paris puf, 1968.

Daoulatli, A., Tunis sous Les Hafsides, INAA, Tunis, 1971.

Dartigues, A., Qu'est – ce – que La phénoménologie, Toulouse Privat, 1972.

Dumant, J., vandoaren, D., La sociologie T II éd Gerand et c°, 1972.

Durand, Gilbert., Les structures Anthropologiques de L'imaginaires, berdas, 1969.

Durkheim, E.

Les formes de la vie Religieuse, paris puf, 1968.

Textes, T1, Eléments D'une Théorie sociale, paris Minuit, 1975.

Duverger, M., Introduction à la politique, paris, Gallimard, 1964.

Duvignaud, J., Anthologie des sociologues Français, paris puf, 1970.

Ferrier, J.L., Sémiotique de L'espace, paris, Denoël Goutier, 1979.

des Minorités actives, éd Armond colin, 1991.
Marcuse, H., Eros et civilisation, éd Minuit, 1968.
Mauss, M., sociologie et Anthropologie, paris puf, 1968.
Merlin, P.; Choay, F., Dictionnaire de L'urbanisme et de L'aménagement; Paris puf; 1988.
Merrackchi, Histoire des Almohades; E.fagnan; Jourdan; Alger; 1893.
Morin, E., Le cinéma ou L'homme L'Imaginaire; éd Minuit; 1966.
Pailhous, J., La représentation de L'espace urbain; paris puf; 1970.
Parsons, T.:
Éléments pour une sociologie; paris plan; 1955.
Le système des sociétés Modernes; éd Dunad; 1973.
Pennec, P., Les Transformations des corps de Métiers de Tunis; Tunis INEA; 1964.
Perrin, Guy, sociologie de Pareto; paris puf; 1966.
Pharo, P., Quéré, L., Les Formes de L'action; éd EHESS; paris; 1990.
Poggeler, O., La Pensée de Matin Heidegger.
Ponty, Merleau, Existence et Dialectique; paris puf; 1971.
Rocher, Guy, Introduction à la sociologie générale; Vol I; L'action sociale; éd HMH; 1968.
Signolles, P., L'espace Tunisien: capitale et état région; Tours Urbama; 1985.
Simmel, G., Sociologie et épistémologie; paris puf; Trad. casparin, L.; 1981.
Sorokin, M., Les Théories sociologiques contemporaines.
Tessier, R.; Tellier, Y., Changement planifié et évolution spontanée; paris puq; 1991.
Touraine, A.:
Le retour de L'acteur; éd Foyard; 1984.
Pour La sociologie; éd de seuil; paris; 1974.
Sociologie de L'action; paris seuil; 1965.
Weber, Max, économies et société; paris plan; 1971.

Périodiques:
Annales: N°3 Mai; juin; 1970.
Espaces et sociétés: N°2 Mars; 1971.
L'espace géographique: N°1; Jan-Mars; 1975.
L'espace géographique: N°1; 1985.
Revue Française de Sociologie N°4; Oct-Déc.; 1981.

Fitcher, J., La sociologie, Notions de base, paris, éd universitaire, 1960.
Freund, J., Les Théories des sciences Humaines, paris puf, 1973.
Goffman, E., Les Rites D'Interaction, éd Minuit, 1974.
Grawitz, M., Méthodes des sciences sociales, paris, éd Dalloz, 1979.
Gurvitch, G.:
Déterminismes sociaux et liberté humain, paris puf, 1945.
La sociologie au XX éme siècle, paris puf, 1947.
La vocation Actuelle de la sociologie, vol I, paris puf, 1963.
Halbwachs, M.:
La mémoire collective, paris puf, 1950.
Les cadres sociaux de la mémoire, paris puf, 1952.
Herman, J., Les Langages de la sociologie, paris puf, 1988.
Herpin, Les sociologues Américains et le siècle, paris puf, 1973.
Hogue, H.P., Levesque, M., Morin, E.M., Groupe, Pouvoir et communication, puq,1988.
Janne, H., Le système sociale, éd ISULB, 1968.
Jeudy, H.P., Mémoires du social, paris puf, 1986.
Labasse, J., L'organisation de L'espace, Eléments de géographie volontaire, éd Hermann, paris, 1971.
Lacan, J., Le séminaire, éd le seuil, 1973.
Laroui, Abdallah., Les origines sociales et culturelles du nationalisme Marocain, paris, 1977.
Ledrut, R., sociologie Urbaine, paris puf, 1979.
Lefebvre, H.:
Critique de la vie quotidienne, paris, éd L'arche éditeur, 1961.
La Production de L'espace, éd Anthropos, 1974.
La vie quotidienne dans la Monde Moderne, éd Gallimard, 1968.
Maffesoli, M.:
La conquête du présent, paris puf, 1979.
La Mise en scène de la vie quotidienne, La logique de la domination, paris Puf, 1976.
L'ombre de Dionysos, paris, Librairie des Méridiens, 1985.
Mann, p., L'action collective, Mobilisation et organisation

Modalities for the Use of Social Selves to the Private Urban Space

*Shehab Al-Yahyawi**

ABSTRACT

This article is extracted from our study Sociomorphology: the distribution of urban space and social change: Hafsid city model. Find tended to approach from the perspective of urban space hosted by the use of social selves that move and live and interact within and across urban space and communicate with others and with itself through space as a symbolic address the cultural identities of the place and social channel continues to take a symbolic turn. A humble deepens Search given the cultural approach to space urban today and what is produced by a dynamic interaction symbolic and socio - a cultural guide to the morphology and architectural space of the city Arab Islamic day of the phenomena Perhaps the most important of the overlap between the rural and urban and between the traditional and the modern, duplication and clear on both the aesthetic and artistic and architectural.

We have adopted the Tunisian Hafsid of the country as an example of being a city with a historic character and reveals the research, including many urban pathological phenomena identity, the identity of cultural and historical affiliation.

Keywords: Planned Change, Intentional Change, Oriented Change, Formal Change, Spontaneous Change, Informal Change, Constance, Stability, Continuity, Progress, Social Agent, Social Actor, Refusal, Resistance, Innovation, Change, Constraints, Negotiation, Spacial Live.

*. Ministry of Education, Tunus. Received on 23/9/2013 and Accepted for Publication on 10/8/2014.